الرسالة الشافية

في الإعجاز

تأليف إمام البلاغيين

عبد القاهر الجرجانى

شرح وتفسير مع دراسة في وجوه الإعجاز

الدكتور عبد القادر حسين





الرسالة الشافية
في الإعجاز

الرسالة الشافية في الإعجاز

تأليف إمام البلاغيين

عبد القاهر الجرجاني

شرح وتفسير مع دراسة في وجوه الإعجاز

الدكتور / عبد القادر حسين



الرسالة الشافية في الإعجاز

شرح وتفسير
الدكتور/ عبد القادر حسين

الكتـــــاب: الرسالة الشافية في الإعجاز

المـــؤلــــف: الدكتور/ عبد القادر حسين

تاريخ النشر: ٢٠١١م - ١٤٣٢هـ

رقم الإيداع: ٣٠٨٨ / ٢٠١١

الترقيم الدولي: 978-977-463-101-6

الناشـــــر:

دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة والمطابع:

١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)

تليفون: ٠٠٢٠٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٠٠٢٠٢٧٩٥٤٢٢٤

التوزيـــــع:

٣ شارع كامل صدقي الفجالة - القاهرة

تليفون: ٠٠٢٠٢٥٩١٧٩٥٩

www.darghareeb.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منازل الكلام يعلو بعضها بعضًا، ويفضل بعضها بعضًا، والعرب في ذلك هم الأصل في حسن القول، وجمال العبارة، ومن عداهم يعدّ تبعًا لهم. فمن جاء بعدهم يحاكونهم ويسيرون على منوالهم.

فالعرب هم أفضل الناس قاطبة في البلاغة والخطابة، ولا ينكر ذلك إلا جاهل أو معاند.

والرسول ﷺ حين تحدى العرب أن يأتوا بمثل القرآن، تحداهم المرّة تلو الأخرى، فاعترفوا بعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله في كل مرّة. فالقرآن له منزلته السامقة التي لا يقدر الخلق على مطاولته أو مجاراته .

عبد القادر حسين

❁❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام عبد القاهر الجرجاني

(٤٧١هـ)

هو الإمام أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانيّ، أخذ النحو عن الشيخ أبي الحسين محمد بن الحسن (ت٤٢١هـ) ابن أخت أبي علي الفارسيّ (ت٣٧٧هـ) واقتصر على الأخذ منه؛ لأنه لم يلق شيخًا مشهورًا في علم العربية غيره، حكى عنه كثيرًا، ونهل من ينابيع علمه فضلاً عظيمًا .

كان عبد القاهر عالمًا بالنحو والبلاغة، قطع فيهما أشواطًا بعيدة، ومؤلفاته تشهد بذلك، وإمامًا من كبار أئمة العربية والبيان، شافعي المذهب، متكلمًا على طريقة الأشاعرة .

تَمَثَّل تراث أسلافه وخاصة المبرزين منهم كسيبويه (ت١٨٠هـ)، والآمدي (ت٣٧٠هـ)، وعلي بن عبد العزيز الجرجاجي (ت٣٩٢هـ)، كما أخذ عن ابن جني (ت٣٩٢هـ)، ونقل من خصائصه صفحات كاملة في كتابه دلائل الإعجاز.

أصبح عبد القاهر قبلة طلاب العلم، يرتحلون إليه حيثما كان، يرشفون من ينابيع علمه، وينهلون من مصادر حكمته، يأخذون عنه مشافهة، أو ينقلون عنه كتابة.

من أبرز من تأثر به: الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في كتابه الكشاف في تفسير القرآن، وأفاد منه كثيرًا في تطبيقاته البلاغية.

وسار الفخر الرازي (ت٦٠٦هـ) على نفس الدرب، فلخص كتابَي عبدالقاهر: الدلائل والأسرار، وعرض خلاصة ما نقل عن فكر عبد القاهر في كتابة نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، وصاغ فكره في قوالب محكمة، وقواعد ثابتة، لا تخرج عمَّا كتبه عبد القاهر بحال من الأحوال .

وخَيْرُ من أفاد من عبد القاهر: السكاكي (ت٦٢٦هـ) الذي صاغ كتابه المفتاح- الجزء الثالث- الذي أفرده للبلاغة، ناقلاً عن عبد القاهر محتذيًا حذوه، وإن كان

منهجه يختلف عن عبد القاهر اختلافًا جوهريًا، فعبد القاهر ينحو إلى التحليل والموازنة والدراسة، بينما السكاكي يلجأ إلى التقرير والتلخيص ووضع القاعدة، غير أنه في كل الأحوال لم يخرج عما ارتسمه عبد القاهر في دلائله وأسراره .

وتبعه في ذلك علماء كثيرون حتى تحولت البلاغة على أيديهم إلى شروح وتلخيصات، بعد أن كانت مبهرة على يد عبد القاهر.

سار هؤلاء الأعلام الثلاثة: الزمخشري، والرازي، والسكاكي في ركاب عبدالقاهر، مقتفين أثره يربطهم جميعًا رباط واحد، هو رباط البيئة الجغرافية، حيث إنهم ينتسبون إلى إقليم جغرافي واحد.

وللإمام عبد القاهر كتب عديدة في فروع مختلفة: في النحو والتصريف، والبلاغة والتفسير، والأدب والعروض.

فله في النحو والتصريف:

١- المغني: هو شرح لكتاب الإيضاح لأبي عليّ الفارسيّ (ت٣٧٧هـ) في ثلاثين مجلدًا .

٢- المقتصد: اختصر فيه كتاب الإيضاح، وجعله في ثلاثة مجلدات .

٣- الإيجاز: هو مختصر شاف لكتاب الإيضاح .

٤- الجمل: تحدث فيه عن العامل في الاسم والفعل والحرف.

٥- التخليص: وهو شرح لكتاب الجمل .

٦- العوامل المائة في النحو: وكان لهذا الكتاب صدى عظيم حتى نظم شعرًا.

٧- العمدة في التصريف .

وفي البلاغة:

٨- دلائل الإعجاز: تحدث فيه عن نظرية النظم، والأعمدة التي تقوم عليها من ائتلاف في الكلمات، وترتيب لمعانيها.

٩- أسرار البلاغة: ويُعَد من أعظم ما كتب في الأدب العربي في البلاغة والشعر.

وفي علوم القرآن:

١٠- الرسالة الشافية في الإعجاز: وهي التي نقوم بتحقيقها وتفسيرها وهي التي بين يدي القارئ.

١١- شرح الفاتحة: ذكر في طبقات الشافعية، وطبقات ابن قاضي شهبة.

١٢- شرح على كتاب إعجاز القرآن للواسطي (ت٣٠٦هـ).

١٣- درج الدرر: ذكره بروكلمان.

وفي الأدب:

١٤- المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام، منشور في الطرائف الأدبية للميمني.

وفي العروض: كتابان لم يعرف موضعهما بعد، وهما:

١٥- التذكرة: ذكر في طبقات ابن قاضي شهبة ٢/ ٩٥.

١٦- المفتاح: ذكر في كشف الظنون ٢/ ٦٢٣.

وبعد.. فهذه ترجمة موجزة تكشف عن حياة عبد القاهر الحافلة بالعلم والإبداع.. وكتبه الزاخرة بالرأي المبتكر والنظرية الفذة...)

❁❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إعجاز القرآن

بقلم / دكتور عبد القادر حسين

للرسول ﷺ كثير من المعجزات التي تدل على صدقه، وأنه مرسل من قبل الله سبحانه وتعالى.

وأفضل هذه المعجزات وأبعدها أثرًا وأشدها تأييدًا، هي معجزة القرآن الذي نزل بأفصح اللغات وأبلغ البيان، فقد سحر القرآن العرب منذ أن استمعوا إليه في اللحظة الأولى، سواء من شرح الله صدره للإسلام، وأنار بصيرته، أو من طُبع على قلبه وجعل على بصره غشاوة.

فالوليد بن المغيرة، وهو من أفصح العرب وأقواهم بيانًا، وأعظمهم بلاغة، يقول عن القرآن الكريم: ﴿**إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ**﴾ [المدثر: ٢٤].

والقساوسة الرهبان: ﴿**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ**﴾ [المائدة: ٨٣]. فالقرآن من شأنه إذا استمع إليه إنسان أن تتحرك مشاعره، ويهتز قلبه طربًا، أو يقشعر بدنه خوفًا، أو ينعصر فؤاده رجاء، لما فيه من جمال في الأسلوب، وقوة في العبارة، وموسيقية في الإيقاع، والله يصف كتابه بأنه ﴿**أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [الزمر: ٢٣].

فروعة القرآن تدرك ولا توصف شأن النغم الحلو، والوزن المستقيم، فيتسلل إلى أغوار النفس، ويستقر في أعماقها. ولكن العرب كما يصفهم القرآن ﴿**قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخرف: ٥٨]، وأعداء ألداء: ﴿**وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا**﴾ [مريم: ٩٧]، فأخذوا يتناولون القرآن بالتشكيك تارة، فزعم بعضهم أنه في متناول أيديهم، وأنهم قادرون عليه: ﴿**لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا**﴾ [الأنفال: ٣١]. وبالتهجم تارة أخرى، فأرجفت طائفة بأنه كذب، وقد صنعه محمد من تلقاء نفسه، وافتراه على الله: ﴿**وَقَالُوا مَا هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ مُّفْتَرًى**﴾ [سبأ: ٤٣]، وحرضوا على النفور

منه، وترك الإصغـاء له، ودَعَوا إلى الطعن فيـه، فكانوا يقولون: ﴿لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦] .

ولكن الله رد كيـد الكافرين إلى نحورهم، وأدخل اليـأس على قلوبهم حين تحدى الرسول بلغاء العرب وفصحاءهم أن يأتوا بسـورة من مثله، ولكنهم عجزوا وأعرضوا عن معارضته، فكان ذلك داعيًا إلى الاعتراف بإعجاز القرآن، وقصورهم أمام بلاغته.

والقرآن ليس معجزًا للعرب وحدهم، وإنما هو مـعجز للعربي وغير العربي؛ لأن دعوة الإسلام دعوة عالمية ليست مرتبطة بلغة معينة، ولا بوطن خاص، وإنما هي دعوة تحتوي العالم بأسره، ومن أجل ذلك كان القرآن معجزًا لجميع الأمم والأجناس.

وحجة القرآن على العـرب الفصحاء كحجته على غـير العرب من الأعاجم، كما أن حجة مـوسى عليه السلام في قلب العصا حية كانت لأمهـر السحرة وغير السـحرة. وحجـة عيـسى عليـه السلام في إحـياء الموتى لم تكن لأعظم الأطـباء وحدهم، وإنما كـانت للطبيـب الماهر والخامل، وغيـر الطبيب علـى السواء، وإذا عجز أمهـر السحرة وأعظم الأطباء عن الإتيان بمثل ما أتي به مـوسى وعيسى كان ذلك أدعى إلى عجز غيرهم.

كذلك الشأن في معجزة القرآن، أتى به محمد ﷺ لأفصح الناس وأقدرهم على نظم الكلام العربي، ورغم حـرصهم على تكذيب الرسول، وإفـساد دعوته، لم يفلحوا في مجاراته، ولم يستطيعوا تكذيبه .

وإذا كان العرب الفـصحاء عاجزين عن مـجاراة أسلوب القرآن في فصـاحته وبلاغته، فغيرهم من الأعاجم أعجز .

وقد يقول قـائل: إن الأعجمي الذي لا يفهم العـربية لا يدرك ما في أسلوب القرآن من نظم معجز، وبلاغة عجـيبة، ولا يدري من أين يكون إعجازه، وكيف تكون بلاغته، وعندئذ تسقط الحجة في الإعجـاز. نقول: إن الإعجاز لغير العربي يبدو في أشياء أخر فوق البلاغة والفـصاحة التي لا يدرك مراميها، فكل يوم تطلع علينا أشياء جديدة، ومكتشفات حديثـة لا نجد تناقضًا بينها وبين ما في القرآن من نهج اتبعه في التعـبير عنها في تناسق تام لا نفرة فيـه، بحيث يدرك الأعجمي من هذا التناسق في التعـبير، والدقة في الأداء القـرآني الذي يتفق وما يكتشـفه العلم حديثًا، سرًا من أسرار الإعجاز في الأسلوب البياني للقرآن.

وجوه إعجاز القرآن

محمد ﷺ النبي الأمي الصادق تحدى العرب الذين بلغوا النهاية في حسن القول وبراعة الكلام، تحداهم أن يعارضوا القرآن، فهو كلام الله، نزل به جبريل الأمين، وما كان أمره كذلك ينبغي ألا يكون في طوع البشر مجاراته أو في مقدورهم محاكاته، وقد سلك الرسول ﷺ معهم سبل الحِجَاج، فبدأ بالأصعب، ثم تدرج إلى الأسهل، وكلما عرض عليهم صورًا من التحدي أخفقوا واعترفوا بعجزهم، تحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن: ﴿**قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [الإسراء:٨٨] ، فصعب عليهم الأمر واستعصى عليهم القول، فأراد الله أن يخفف عنهم، فتحداهم ثانيًا أن يأتوا بعشر سور من مثله: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ**﴾ [هود:١٣] ، فلم يأتوا بهذه السور التي تعد على الأصابع إذ لا قِبل لهم بها؛ ولا طاقة لديهم بمثلها، فتدرج التحدي معهم إلى أقصى ما يمكن أن يكون عليه الأمر، تحداهم بسورة واحدة فقط، ليس شرطًا أن تكون في معنى السورة التي يعارضونها؛ بل بأي معنى من المعاني، ولكن في جمال نظم القرآن وإبداعه: ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٣) فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [البقرة: ٢٣، ٢٤] . فالله وصف رسوله في هذه الآية بالعبودية وأضاف العبودية إليه، وهذا تشريف للنبي ﷺ وتقريب له، حتى يكون الناس جميعًا عبيدًا لله سبحانه لا يستكبرون عن عبادته، وإن كانوا يرتابون في القرآن، وأنه منزل من قبل الله، فليأتوا بسورة من مثله، من طوال السور أو من قصارها، وفي ذلك تقريع للمعاندين وسخرية من المكابرين، وتنديد بمن يرتاب في معجزة الرسول الأمي، ثم اشتد القرآن في القسوة عليهم حتى تندّر بهم

وطالبهم أن يدعوا من دون الله: من الناس أو الأوثان من يشهد لهم بصدقهم وقدرتهم، وحسب محمد أن يكون الله قد شهد له بالصدق في دعواه.

ثم زاد أمر التحدي والإصرار عليه، ولكن طاقتهم أضعف من احتماله، ولذلك يقرر القرآن في جزم شديد مخاطبًا المعاندين: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا﴾ [البقرة: ٢٤] بأنهم ما استطاعوا ذلك في الماضي والحاضر، ولن يستطيعوه أيضًا في المستقبل، فالخطاب للبشر جميعًا، وفي عصر الرسول وبعد عصر الرسول، ولكل الأجيال المقبلة، فهم عاجزون وإن كانوا لا يستجيبون؛ لأن الله ختم على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة، فألبسوا الحق بالباطل، وتمادوا في جهلهم، وأصروا على عنادهم، واستكبروا استكبارًا.

أجل تحداهم محمد أن يأتوا بمثل القرآن، أو أقصر سورة منه، ليس في معناها بل بأي معنى شاءوا، ولكن بجمال نظمه وحسن أسلوبه.

يقول الجاحظ (ت٢٥٥هـ): «ولا يجوز أن يكون مثل العرب في كثرة عددهم والكلام كلامهم وهو سيد عملهم، وقد فاض بيانهم حتى قالوا في الحيات والعقارب والذئاب والكلاب والخنافس، وكل ما دبّ ولاح لعين وخطر على قلب، ولهم - بعدُ- أصناف النظم، وضروب التأليف.. ثم لا يعارضه مُعارض، ولم يتكلف ذلك خطيب ولا شاعر.

وهل يذعن الأعراب وأصحاب الجاهلية للتقريع بالعجز، ثم لا يبذلون مجهودهم، وهم أشد خلق الله أَنَفَة، وأفرطهم حمية؟!(١).

فالقرآن معجز بنظمه، وصياغة أسلوبه، ودقة ألفاظه، والتئام بعضها ببعض، فالجمل متشابكة يرتبط بعضها مع بعض، ويدلّ أولها على آخرها».

ويستمر الجاحظ في إبراز روعة القرآن وتميزه عن غيره من الأساليب العربية، «فلو أن رجلاً من العرب قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة أو قصيرة لتبين له في نظامها ومخرجها، وفي لفظها وطبعها أنه عاجز عن مثلها، ولو تحدث بها أبلغ العرب لظهر عجزه عنها... ولو أراد أنطق الناس أن يؤلف سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعة وتأليفه ومخرجه، لما قدر على ذلك»(٢).

---

(١)، (٢) رسائل الجاحظ- السندوبي.

الصَّـــرفة

وإذا كان الرسول ﷺ قد طالبهم في دعوته بترك أديانهم، وهجر أوثانهم، والتضحية بأموالهم، وبذل أنفسهم في سبيل الله، وأن يصبروا ويصابروا، وأن يتخلوا عن كل ما ألفوه مما يتنافى مع الرسالة الجديدة، فقد شق الأمر على نفوسهم، وناءت به كواهلهم، وهم قد درجوا على الأنفة والحمية الجاهلية ورفض الخضوع، والإذعان للطاعة، كل هذه الصفات جعلت العرب في موقف الدفاع عن التقاليد والتمرد على الرسالة المحمدية، فتوافرت الدواعي لديهم لإبطال حجة الرسول ﷺ، وقهره أمام الناس أجمعين، إذن فدواعي المعارضة للمعجزة التي أتى بها محمد للدلالة على صدقه متوافرة، فإذا لم يقدروا على المعارضة ولم يجدوا إليها سبيلاً؛ كان ذلك دليلاً على عجزهم، وهل ثمة علامة للعجز أكبر من ذلك .

وليس أعجب من قول النظام[1] أحد علماء المعتزلة، من أن القرآن نفسه غير معجز، فهو في رأيه كتاب مثل سائر الكتب، لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله صرفهم عن ذلك وسلب علمهم: أي أن الإعجاز في المنع وليس في القرآن، إذ إن العرب فيهم ذلاقة لسان وانطلاق عبارة، وهم قادرون على حوك الكلام وصياغته في أسلوب جميل خلاب، أي أنهم قادرون على أن يأتوا بسورة من مثل القرآن بلاغة وفصاحة، ولكن الله صرف هممهم عن مجاراة القرآن، والرجل إذا كان قادراً على القيام بشيء، وعنده الحافز والرغبة في القيام به، فسيقوم به لا محالة، فإذا توافرت له الأسباب من قدرة وحافز ورغبة، ثم لا يستطيع القيام به، فذلك شيء خارج عن العادة، إذ ليس ثمة ما يعوقه ويعجزه عن تحقيق غرضه، «كأن يأتي مثلاً نبي ومعجزته في تحريك يده، ويطلب من القوم تحريك أيديهم فيعجزون رغم صحة أبدانهم ونشاط جوارحهم، فلما لم يقدروا كان ذلك دليلاً على صدقه»[2] .

---

(١) الألوسي: ١/ ٢٧، الملل والنحل: ١/ ٦٧، أمالي المرتضي: ١/ ١٨٧ .

والنظام: هو أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام، شيخ الجاحظ، وأحد أعمدة المعتزلة، توفي سنة ٢٢٤هـ .

(٢) بيان إعجاز القرآن للخطابي ص ٢٠ .

والأمر كذلك بالنسبة للقرآن، فهو معجزة الرسول ﷺ، وطلب من القوم أن يأتوا بمثله فصاحة وبلاغة، فيظهر عجزهم وبلاغتهم، وقد وجدوا في أنفسهم ما يشبه الآفة حين عرض عليهم ما يحيل السهل صعبًا، وإذا كان العائق خارجًا عن العادات صار كسائر المعجزات .

وهذا دليل ظاهر على أن أمر المعارضة ليس بأيديهم، وإنما هو خارج عن طوقهم، إذ لا يخفى على ذوي البلاغة أن صارفًا إلهيًا قد صرفهم عنها، وهذا يفيد أن القرآن ليس من صنع البشر، وإنما هو معجزة الله لنبيه محمد ﷺ، وأي إعجاز أعظم من أن يعجز البلغاء عن معارضة قول في الظاهر، صرفهم الله عنه في الباطن.

والقول بالصرفة مردود: «لأن العرب ما تكلموا بمثل القرآن قط، ولم يأت منهم نظيره قبل مبعث النبي ﷺ، ولو نظموا مثله قبل مجيء الرسول لقالوا هذا مثل نظمنا، وإنما صرفنا الله عنه، ولكنهم لم يقولوا ذلك، فدل على أنهم لم يقدروا عليه لا في الحاضر ولا في المستقبل»[1] .

وإذا كان الله هو الذي سلبهم القدرة على الإتيان بمثله، فيكون المنع من الله هو المعجز، وليس في القرآن صفة الإعجاز، ولا يتميز بفضيلة عن غيره، مع أن الإجماع متفق على إضافة الإعجاز للقرآن .

والقول بالصرفة فاسد أيضًا بدليل قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ [الإسراء:٨٨] ، إذ لو أن الله صرفهم وسلب عنهم القدرة لم تبق فائدة لاجتماعهم؛ لأنه يكون بمثابة اجتماع الموتى، وليس عجز الموتى مما يحتفل به.

فالقول بالصرفة نظرية لا نشك في خطئها، وفيها مساس بالذات العلية لا يليق بمسلم أن يعتقده. والحق أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة أحد من الخلق، فالعربي الفصيح كان يصنع الخطبة أو يقرض القصيدة ويستفرغ فيها كل جهده، ويعود عليها بالتنقيح المرة تلو المرة، وقد يستغرق ذلك حولاً كاملاً، فإذا

---

(١) نكت الانتصار ص ٢٨٩ .

أعطيت لنظيره عالجها بالتبديل والتنقيح، ثم لا يزال الأمر كذلك موضع تغيير وتحوير.

أما كتاب الله، فلو نزعت منه لفظة، أو أردت أن تغير فيه كلمة ما استطعت أن تأتي بلفظة أو كلمة أخرى أفضل منها، وإذا كان العربي القديم يتميز بحسه اللغوي وقريحته النفاذة، وظهرت له براهين البراعة في نظم القرآن وعجز عنها، فإننا الآن على العجز أظهر، وبالتسليم أولى؛ لأننا قاصرون عن مرتبة العرب الأقدمين في سلامة ذوقهم اللغوي، وجودة قريحتهم في تأليف الكلام، ولو كان الإعجاز بالصرفة استعظموا فصاحة القرآن وتعجبوا لبلاغته وحسن فصاحته، والرواية المشهورة عن إعجاب الوليد بن المغيرة بالقرآن وحلاوته عند الإصغاء إليه أعظم شاهد على ذلك .

❁❁❁

الإخبار عن المستقبل

وزعم قوم إن إعجاز القرآن مصدره فيما تضمن من الإخبار عن الغيب، وعن أشياء تحدث في المستقبل، وقد تأكد صدق هذه الأخبار بوقوعها، وذلك ليس في قدرة البشر ولا طاقة لهم به، فمن وعد الله لنبيه[1] أنه سيظهر دين الإسلام على الأديان كلها حين قال له: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٣] . وقد تحقق وعد الله لنبيه ﷺ، فظهر الإسلام على غيره من الأديان الأخرى، وانتشر في شتى البقاع، وأصبحت له الغلبة حيثما كان، ولذلك كان أبو بكر ﷺ إذا أرسل جيوشه للغزو عرفهم بوعد الله، وأطلعهم على نصرته لدينه الحنيف حتى يثقوا بالنصر، ويتيقنوا من الفوز، ورأى أبو بكر الصديق ذلك وصدق الله وعده .

وعمر بن الخطاب ﷺ كان يفعل مثل ذلك في أيامه ويعدهم بالفتوح، ونشر الإسلام، فما وعدهم ربهم حقًا، ولابد أن وعده يمضي وينفذ، ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥] وكان ذلك ما وعدهم الله تعالى، فاستخلف الأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٢] ، أي قل لليهود الذين مالئوا قريشًا بعد هزيمة المسلمين في غزوة أُحُد، وتمردوا عليك بنقض العهد: إنكم ستغلبون في القتال، وصدق الله وعيده، فانقلبوا مهزومين مدحورين، وغير ذلك كثير من آيات القرآن الكريم.

❁❁❁

---

(١) إعجاز القرآن ص٧٢، التمهيد ص ١٣٠، المعترك: ١/ ٢٣٩ .

أخبار الأمم البائدة

ومن الوجوه المعجزة في القرآن الكريم إخباره عن أحوال الأمم الماضية والقرون السالفة[١] ، وقصص الأولين، وسير الماضين، وما حدث معهم أو كان في عصرهم، وهذا أمر لا يمكن تحصيله إلا بمعرفة القراءة والكتابة، وكثرة الاطلاع، ومجالسة العلماء وأهل السير والأخبار والأخذ عنهم. والرسول ﷺ لم يكن قارئًا ولا كاتبًا، ولم يكن أيضًا ممن عرف بمجالسة أهل السير والأخبار وتلقي العلم على أيديهم، ولو كان يختلف إلى العلماء والمشتغلين بصناعة الأخبار ما خفي أمره على أحد، فإذا انتفت عن الرسول صفة القراءة والمدارسة، كان من البدهي أن وقوفه على هذه الأخبار من لدن الله وتأييد من وحيه، وهذا وجه الإعجاز في القرآن، فقد حكى هذه الأخبار حكاية من شهدها وحضرها: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٤، ١٠٥] ليس الأمر كما زعموا أن الرسول ﷺ كان يدرس، وإنما ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩] .

ولذلك يتحدث القرآن عن قصص الأنبياء، كقصة آدم عليه السلام، وخروجه من الجنة وتوبته، مارًا بالأنبياء حتى محمد ﷺ .

فعدد الأنبياء لا يحصى، وقد ذكر بعض المفسرين «أن عددهم يبلغ ثمانية آلاف رسول: أربعة آلاف من بني إسرائيل، وأربعة آلاف من سائر الناس أجمعين»[٢] .

---

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص٣٤، ٧٢، والتمهيد ص ١٣٠، ١٣١ .

(٢) تفسير الجلالين ص١١٤ .

هذه الأقاصيص التي جاءت في القرآن على لسان محمد ﷺ أدهشت عقول المشركين، وحيرت ألبابهم، ودعتهم أن يزعموا زعمًا أنه كان يدرس التاريخ خفية، ويقرأ الكتب خلسة؛ ولكن الله نفى عنه افتراءهم، وفضح زعمهم، وكشف كذبهم، وجزم القرآن بأن محمدًا لم يكن لديه هو ولا قومه علم بهذه الأنباء : ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] .

فورود هذه القصص في القرآن ليس من افتراء محمد ﷺ ؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، ولا يخبر بشيء من تلقاء نفسه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٤] ، «وهذه الأنباء دليل إعجاز القرآن؛ إذ ليس في وسع بشر أن ينبئ بمثل هذه الأخبار عن الماضي، وربما كان ذلك لأن الماضي الذي يخبر عنه محمد سابق على كل تسجيل، أو بما يجوز أن تجد له أثرًا في وثيقة»[1] .

ورغم ما ذكر من قصص الأنبياء في القرآن، والتأكيد بأن محمدًا النبي الأمي لم يكن له عهد بمثل هذه القصص لا عن طريق الدراسة، ولا عن طريق مخالطة الأحبار اليهود، ولا الرهبان المسيحيين، وأنّى له أن يعلم ما يعلم من تلك القصص المفصلة، ويحيط بهذه الأنباء الدقيقة، وهو الصادق الأمين في أقواله وأفعاله؟ وأنّى له أن يعلم ذلك إن لم يكن بوحي من الله وتأييد من لدنه، ورغم ذلك كله لا نستطيع أن نأخذ بهذا الرأي القائل بأن مرجع الإعجاز في القرآن إلى ما فيه من هذه الأخبار والقصص؛ لأن ذكر الأنبياء وقصصهم لم يرد في القرآن وحده؛ بل ورد في غير القرآن من الكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم التي لا تتصف بالإعجاز.

❁❁❁

---

(١) المعقول واللامعقول ص١٤٣، د. زكي نجيب .

الإعجاز العـددي

ذكر بعض الباحـثين المعاصرين[١] أن التماثل في الأعـداد والتكرار في الأرقام هو صورة من صـور إعجاز القرآن التي لا يمكن للبـاحث أو الدارس أو القارئ أن يستعرضـها إلا هو يؤمن الإيمان الكامل المطلق أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون إلا بوحي من الله سبحـانه وتعالى لآخر أنبيائه وخـاتم رسله؛ لأنه شيء فوق القدرة وأبعد من حدود العقل البشري. فهذا الوجه من الإعجاز وجه قاطع، ودليله العدد والحساب، والعدد لا يختلف والحساب لا يخطئ.

فلفظ الدنيا مثلاً قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الآخرة.

ولفظ الشياطين قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الملائكة.

ولفظ الموت قد تكرر في القرآن الكريم قدر ما تكرر لفظ الحياة.

وهذا التـوازن والتناسق العـددي في مـوضوعـات القـرآن لا يمكن أن يكون مصادفة قـدرية أو حادثة عفوية؛ لأنه توازن مقصود، وتناسق غـير محدود. وهذه الأعداد المتـساوية والأرقام المـتماثلة في ألفـاظ القرآن التي تم توزيعـها في الآيات توزيعًا دقـيقًـا أعظم من أن تحددها طاقـات بشرية، أو أجـهزة حاسـبة أو عـقول إلكترونية.

ويرى الباحث أن التساوي في عدد الألفاظ، أو مـا يطلق عليه الإعجاز العددي هو المرتبة الأولى للإعجاز، ثم تأتي الآيات بعد ذلك قمـة في البلاغة والبيان وروعة في الصياغة والإتقان: أي أن بلاغة القرآن وفصـاحته تأتي في المرتبة الثانية من وجوه الإعجاز بعد الأعجاز العددي الذي وضعه الباحث في المرتبة الأولى.

هذه هي فكرة الإعـجاز العددي كـما تصورها البـاحث، وأراد أن يدلل على صحتها ويؤكـدها من خلال ألفاظ كثيرة ساقهـا، ثم أورد ألفاظًا تقابلها في المعنى

---

(١) الإعجاز العددي للقرآن الكريم - عبد الرازق نوفل ٨-١٠،١٨١، ١٩٢ .

ليجـد أن الألفاظ ذكـرت بنفس القدر والعـدد الذي ذكرت به الألفاظ الـتي تحمل المعنى المقابل.

وهذا الوجه أقوى من أي وجه آخر من وجوه الإعجاز؛ لأنه وجه لا تختلف في نتيجـته الآراء ولا تتعدد الاتجـاهات، فهو ليس بتفـسير أو تأويل تتعـارض فيه الاجتـهادات وتتبـاين النظريات، ولكنه حسـاب وأرقام، وحـقائق الحسـاب دائمًا قاطعة، وشواهد الأرقام أبدًا دامغة.

وقد وجـد المؤلف أن ما توصل إليـه في هذا الشأن لابد أن ينـشر وأن يذاع، وأن يعـرض على أوسع نطاق، وإلى أبعد حـد ليحـمل الوجه الجـديد للإعـجاز القرآني: وهو الإعجاز العددي للقرآن الكريم.

ولعل من الطريف أن نقول: إن فكرة الإعجاز العـددي ليست حديثة أو نابعة في عصرنـا الذي يهتم بالأرقام والحسـاب وشئون الاقتصـاد، وإنما هي فكرة قديمة ذكرها السيوطي في بعض كتبه، حيث نراه يشير إليها بقوله: «وقال ابن سراقة في وجوه إعجاز القرآن:

ما ذكـر الله فيـه من أعداد الحـساب والجمع والقـسمـة والضرب، والموافـقة والتأليف، والمناسـبة والتصنيف والمضاعـفة؛ ليعلم بذلك أهل العلم والحـساب أنه ﷺ صادق في قوله: إن القرآن ليس من عنده، إذ لم يكن ممن خـالط الفلاسفة ولا تلقى عن أهل الحساب وأهل الهندسة»[(١)] .

ففكرة الإعجاز الـقائمة على الأعداد والحساب إذن كانت مـعلومة من قديم، وقد طرقت من قبل، إلا أنها لم تطرق بالتفصيل والتأكيد الذي أوضحه لنا مؤلف الإعجـاز العددي، فـالبذرة وإن كـانت سابقـة إلا أن المؤلف المعاصر اسـتطاع أن يتعهدها بالعمل والمراجعة حتى أنبتت شجرة عظيمة لها فروع وثمار.

ويجدر بنا أن نذكر بعض الملحوظات على هذا الوجه من الإعـجاز نلتزم فيها الدقة والتحقيق سـواء فيما تشابه من الألفاظ أو فيمـا اختلف، مادامت الحسابات

---

(١) المعترك: ١/ ٢٢ .

والأعداد تلتزم بالدقة والإحصاء، ولا مجال فيها للتفسير أو التأويل أو الاجتهاد، «لأن حقائق الحساب دائمًا قاطعة وشواهد الأرقام أبدًا دامغة».

يقول المؤلف: «تساوى عدد مرات ورود لفظ الشيطان، وعدد ورود لفظ الملائكة في القرآن الكريم:

فقد تكرر لفظ الشيطان ٦٨ مرة في مثل النص الشريف:

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] .

وتكرر لفظ الملائكة ٦٨ مرة في مثل النص الكريم:

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢] »[1]

ولفظ الموت ومشتقاته قد تكرر ١٤٥ مرة.

ولفظ الحياة ومشتقاته قد تكرر ١٤٥ مرة.

وكذلك لفظ النفع ورد في القرآن ٥٠ مرة.

ولفظ الفساد ورد في القرآن ٥٠ مرة.

فهذه المساواة في الأعداد بين اللفظين دليل على إعجاز القرآن، ولنا بعض الملاحظات نشير إليها فيما يلي:

أولاً: أن العرب لم يكونوا من علماء الحساب أو المهتمين بالأرقام والإحصاء، وهم وإن كانوا عربًا يشتغلون بالتجارة ويهتمون بالربح والخسارة التي تستلزم الحساب ومراجعة الأعداد، والتجارة هي قوام حياتهم والمورد الأهم لرزقهم، واهتمامهم بالربح والخسارة محور تحركاتهم، ولم يكن لهم غناء عنها في معاملاتهم الداخلية أو الخارجية على حد سواء، وقد كان التاجر يجمع من أفراد المدينة الواحدة ما يكون به قافلة تتجه إلى الشمال أو الجنوب، التماسًا للشراء والبيع وطلبًا للربح، ولاشك أن المسهمين في هذه القافلة برءوس أموالهم أو بإشرافهم أو بمجهودهم يفتقرون إلى معرفة نصيب كل منهم في رأس مال القافلة وأرباحها، وما كان ذلك ليتيسر إلا بالحساب ومراجعة الأعداد، سواء أكان ذلك

(١) الإعجاز العددي ص ١٧ .

بالحفظ والاعتماد على الذاكرة، أم كـان بكتابة الأرقام وتدوينها، إلا أن ذلك كان بطريقة ساذجة تحفظ عليهم أموالهم ويعرفون بها ما لهم أو عليهم من ديون، وذلك لا يستلزم البراعة الكبيرة في الحساب، حتى يتحداهم القرآن فيما برعوا فيه من أعداد وحساب، اللهم إلا إذا كانت المعجزة أعجب وأعظم حين نفترض أنها جاءت لقوم لم يشتهروا بمثل ما جاءت به المعجزة، كأن يكون الإعجاز في القرآن للحساب والأرقام والإحصاء، والعرب لم تتبحر في علوم الرياضة والحساب، أو تشتهر بممارستها حتى يكون ذلك أدعى للعجز والتسليم، ربما كان الرأي كذلك كما يذهب إليه بعض الباحثين[1] ، ويفضل أن ينفي الصلة بين إعجاز القرآن وفصاحة العرب، وينعي على الأقدمين الذين يربطون بينهما، «لأن القرآن يكون أدعى إلى الإعجاز والاعتراف بإعجازه، أن يكون قد بلغ هذا المبلغ من القوة والبلاغة في لغة لم يعرف أهلها القراءة ولا الكتابة من قبل، ولم يكن لهم بالتأليف عهد، فكان نزوله في هذا الجو على هذا النحو من الكمال معجزة أي معجزة، أما القول بأن كل نبي أرسل بمعجزة من نوع ما تفوق فيه أهله ليكون ذلك أدعى لتصديقه: فموسى أرسل بالسحر؛ لأن المصريين كانوا مهرة في السحر، وأن عيسى نزل بمعجزة إحياء الموتى لتفوق قومه في الطب، وأن النبي أوتي معجزة القرآن لتفوق العرب في الفصاحة، فهي نظرية مفتعلة وبراهينها غير ثابتة؛ بل الثابت أن الطب لم يكن مزدهرًا أبدًا في فلسطين في عهد المسيح».

ثانيًا: أن التساوي في الأعداد لم يلحظ في كثير من الألفاظ المتقابلة أو المتماثلة في القرآن، فقد ذكر لفظ الأرض ومشتقاتها ٤٦١مرة، وكلها بلفظ المفرد، ولم يذكر لفظ «أرضون» جمعًا ولا مرة واحدة.

أما لفظ السماء فقد ورد ٣١٠مرة على هذه الصور: ١٢٠مرة بلفظ السماء مفردًا، ١٩٠مرة بلفظ السموات جمعًا .

والبون شاسع بين هذه وتلك، سواء من حيث العدد أو من حيث الصورة في الإفراد والجمع .

(١) مجلة الأدب، العدد الرابع، السنة الخامسة، يوليو ١٩٦٠م، د. محمد كامل حسين .

ومن الألفاظ المتماثلة نذكر: لفظ موسى، وعيسى، ومحمد عليهم السلام.

فقد ورد لفظ موسى ١٣٦ مرة.

ولفظ عيسى ٢٥ مرة.

ولفظ محمد ٥ مرات، منها مرة واحدة بلفظ أحمد.

وموسى وعيسى ومحمد تجمعهم رابطة واحدة؛ هي رابطة النبوة والرسالة، والتماثل بينهم قائم، ولكن التساوي بينهم في عدد الألفاظ المذكورة في القرآن عن كل واحد منهم ليس قائمًا. ونلاحظ مثل ذلك الفرق الكبير بين لفظ النبي والرسول، ولفظ الأنهار والعيون ومشتقاتهما، مما يدل على أن التساوي في بعض الألفاظ التي استشهد بها المؤلف على صحة نظريته، إنما جاءت عفوًا دون قصد أو هدف.

ثالثًا: يتعجب المؤلف حين يجد أن سور القرآن وعددها ١١٤ سورة يطابق العدد الذي تكرر به لفظ الرحيم وهو ١١٤مرة، ولم يوضح لنا العلاقة بين التساوي في عدد ألفاظ الرحيم، وعدد سور القرآن أو الغرض منه، فأسماء الله الحسنى عديدة، وكثير منها لا يطابق عددها عدد سور القرآن، ولو لاحظ معنى الرحمة في لفظ الرحيم واعتبرها في القرآن، لكان الأجدر أن يعقد الموازنة بين عدد لفظ الرحمة ذاتها، وهي تشمل «رحمتك، ورحمتنا، ورحمته، ورحمتي، والراحمين»، وعددها ١٢٠ مرة عدا ما اشتق منها من أفعال.

فالأعداد التي وردت في القرآن الكريم ليس فيها تماثل، ولا ينبغي أن تكون وجهًا من وجوه الإعجاز.

❁❁❁

الإعجاز العلمي بالقرآن

يروى السيوطي عن أبي الفضل المرسي أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يُحِطْ بها علمًا إلا الله ورسوله، ثم ورث عنه معظم ذلك أعلام الصحابة حتى قال ابن عباس: لو ضاع عِقال بعير لوجدته في كتاب الله[١].

ولذلك نهض العلماء على اختلاف مشاربهم وتخصصاتهم يدرسون كتاب الله دراسة متأنية دقيقة، وذهبت كل طائفة تعالج القرآن لتستخرج منه ما يتفق والعلوم التي تبحث فيها والفن الذي تشتغل به.

فالقراء تناولوا القرآن لبيان لغاته ومعرفة مخارج حروفه، وعدّ كلماته وآياته وسوره.

والنحاة تناولوا القرآن من حيث البناء والإعراب في الأسماء والأفعال والحروف «حتى إن بعضهم أعرب القرآن كلمة كلمة»[٢].

والمفسرون تناولوا القرآن من حيث دلالة ألفاظه على معانيه الظاهرة والخفية، واحتمال الألفاظ للمعاني المختلفة، وترجيح بعضها على بعض.

والكُتّاب والشعراء وعلماء البلاغة نظروا إلى جزالة ألفاظ القرآن وبديع نظمه، وحسن اتساقه، واستخراج ما فيه من معان وبيان وبديع.

والمشتغلون بالعقيدة استخرجوا من القرآن الأدلة العقلية التي تدل على وحدانية الله وتنزيهه عما لا يليق.

وعلماء الفقه دققوا النظر وأحكموا فيه الفكر ليستخرجوا منه الحلال والحرام، والجائز والممتنع، وسائر الأحكام المتعلقة بالمواريث والوصايا وغير ذلك.

والمشتغلون بالعلوم النفسية تناولوا ما في القرآن من آيات لها دلالات نفسية، أو إيحاءات رمزية، واهتموا بصفة خاصة بالآيات التي ورد فيها ذكر الأحلام والرؤى المنامية مثل رؤى يوسف عليه السلام.

---

(١) المعترك: ١/ ١٧، والإتقان: ٢/ ١٢٦.

(٢) المعترك: ١/ ١٨٠.

وعلماء الطب وجدوا في القرآن آيات تفيد الصحة بعد السقم، والشفاء بعد المرض، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩] كما وجدوا في بعض آياته فضلاً عن طب الأجساد، طب القلوب وشفاء الصدور.

والملاحظ أن المشتغلين بعلوم القرآن قد توغلوا في استخراج العلوم المختلفة من القرآن الكريم توغلاً شديدًا، حتى إنهم لم يتركوا علمًا من العلوم إلا قالوا: إن القرآن قد تحدث عنه أو أشار إليه إشارة قريبة أو بعيدة، كأنهم بذلك أرادوا تطبيق الآية الكريمة: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، وقوله: ﴿يَاوَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾ [الكهف: ٤٩]، فكل ما يحتاج إليه الناس في أمر دينهم ودنياهم قد ذكره القرآن مفصلاً أو مجملاً.

وبعض العلماء يؤكدون لنا أن بعض الآيات تحمل إشارات كونية تشير إلى إعجاز القرآن من الوجهة العلمية، ويجمل بنا أن نقول له ولغيره من العلماء الأجلاء: إن إقحام العلم في تفسير آيات القرآن لبيان كونه معجزًا لا تتفق وما نعرفه عن عقلية العرب وثقافتهم وقت نزول الوحي، فالعرب حين نزل القرآن كانوا قومًا بسطاء يعيشون على الفطرة، ويتصرفون بالسليقة، ويمارسون حياة شاقة في بيئة صحراوية، ويتنقلون على ظهور الإبل من مكان إلى مكان مهما طالت الرحلة وبعدت الشقة، وطبعي أن العرب لم يكونوا علماء يباهون الأمم بنظرياتهم العلمية، ويشغلون أنفسهم بالاكتشافات التي تغير مفهم الناس عن الكون الرحيب وما فيه من عجائب فلكية، أو أشكال هندسية أو معلومات زراعية، وهم قوم يمضون حياتهم في الخيام ويقضون أوقاتهم في الرعي.

والقرآن ليس كتاب نظريات علمية مفترضة، أو شارحًا لحقائق علمية ثابتة، أو معملاً تجرى فيه التجارب ليتوصل منها إلى نتائج علمية تخالف المتعارف عليه، أو تؤكده، وإنما هو كتاب هداية للبشرية، تسعد إذا سارت على تعاليمه، وتشقى إذا ضلت عنها، وهو منهج متكامل لحياة الفرد والمجتمع لينطلق في الحدود التي رسمها له دون أن يلجأ إلى تفصيلات وجزئيات علمية، وتجارب معملية، وإنما

يدع ذلك للعقل بعد أن يأخذ حظه من التقويم ليعمل على صلاح البشرية وإسعاد الخليقة.

وتطبيق النظريات العلمية على النصوص القرآنية لا يتمشى وسُنَّة التطور، فالنص القرآني ثابت ومتيقن لا مجال للشك فيه، أما العلم فإنه متغير ومحتمل بحكم التطور الذي يطرأ عليه؛ فالنظرية العلمية التي نعتنقها اليوم ونحاول تطبيق النص القرآني عليها باذلين الجهد والمشقة حتى نصل في النهاية إلى الاتفاق الكامل بين النظرية العلمية المعروفة التي بين أيدينا الآن وبين النص القرآني، هذه النظرية الثابتة اليوم قد يثبت خطؤها غدًا، وتنتقض بنظرية أخرى تخالفها، ومن يدرينا أن هذه النظرية الأخرى قد يطرأ عليها ما يغيرها هي أيضًا ويجعلها نظرية بالية لا قيمة لها علميًا، ولذلك ينبغي أن نتهيب كثيراً قبل أن نتورط في إقحام العلم على النصوص القرآنية.

نعم، قد يشير القرآن إلى بعض الحقائق الكونية إشارة مجملة لا تفصيل فيها، ومن الواجب أن نتفهمها ونأخذ بها؛ لأننا نستيقن من صحتها بمجرد ذكر القرآن لها، والقرآن كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومادام القرآن قد ذكرها مجملة، فكل تفصيل في الظواهر الكونية من خلال النص القرآني قد يجعل القرآن نفسه عرضة للتغيير والتبديل، فالشيء إذا ذكر مجملاً في القرآن أخذنا به كما هو؛ لأنه صادق. أما ذكر التفصيلات وحشد الجزئيات والتماس العلل والأسباب فهي غير صحيحة دائمًا، وغير مسلم بها أبدًا، وإنما تحتمل الخطأ والصواب، ومن المجازفة أن نأخذ بالصواب في شيء ونسعى إلى تطبيقه على النص القرآني، ثم يأتي إلينا العلم نفسه في المستقبل بما ينقض ما سبق لنا الأخذ به، والتثبت من صدقه، واعتباره صوابًا، ليؤكد لنا فيما بعد أنه كان خطأ، ومن ثم لا ينبغي أن نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية علمية، وإنما نتقبلها فقط حين لا تخالف الحقائق المجملة التي ذكرها القرآن وقررها.

وإذا كنا لا نجد تناقضًا بين الآيات الكونية المذكورة في القرآن وبين ما يكتشفه العلم في حاضره أو مستقبله، فليس هذا دليلاً على إعجازه، وإنما هو دليل فقط

على أنه منزل من قبل الله سبحانه، و«ليس كل من نزل من السماء معجزًا، فالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية جاءت من قبل الله، ولم توصف بالإعجاز كما وصف القرآن، ولم يقع بها التحدي كما وقع في القرآن»[١] .

ونضيف إلى ذلك أيضًا أن الآيات الكونية لا تشمل سور القرآن كلها، وهي تبلغ ١١٤ سورة، ولا آياته كلها، وهي تبلغ ٦٢٣٦ آية على أرجح الأراء، وإنما تقع فقط في بعض السور دون بعضها الآخر، وفي بعض الآيات دون البعض الآخر، وهي تبلغ ثمانمائة آية كونية كما يقول المؤلف[٢] ، وهو عدد قليل إذا قيس بعدد الآيات القرآنية. ومعلوم أن التحدي قد وقع بأية سورة من سور القرآن، فكل سورة من سوره فيها إعجاز لا يبلغه أحد ولن يصل إليه أحد، فلو كان القرآن معجزًا بسبب الإشارات العلمية المتفرقة في ثنايا بعض آياته لكان كثير من سور القرآن التي تخلو من مثل هذه الإشارات بعيدة عن الإعجاز، ولم يقل ذلك أحد حتى العلماء أنفسهم الذين نادوا بالإعجاز العلمي للقرآن.

وبعد فقد ذكرنا من قبل بعض وجوه الإعجاز التي رأى العلماء فيها سببًا كافيًا لإعجاز القرآن، فمنها ما كان بالصرفة، ومنها ما كان من ذكر سِيَر الأولين، ومنها ما فيه من تنبؤ بأحداث المستقبل، ومنها ما يرجع إلى التماثل العددي والتناسب في الموضوعات المتناقضة أو المتماثلة، ومنها ما فيه من إشارات تدل على حقائق علمية أثبت العلم صحتها في العصور الحديثة، وغير ذلك من وجوه الإعجاز التي ذكرناها والتي لم نذكرها.

❁❁❁

---

(١) إعجاز القرآن ص٤٧، التمهيد ص١٢٧، المعترك: ١/ ١٠، الإتقان: ٢/ ١٢٤ .

(٢) الإعجاز العلمي ص٨ .

نظم القرآن

أما الآن فنتحدث عن وجه آخر يعتبر من أهم وجوه الإعجاز في القرآن إن لم يكن أهمهـا على الإطلاق، وبه أخذ كـثير مـن العلماء، ونعني بهـذا الوجه نظم القرآن ووصفه بالبلاغة.

«فالقرآن إنما صار معجـزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مـضمنًا أصح المعـاني... واشـتمل على عـمود الـبلاغـة في وضع كل نوع من الألفاظ التي تشـتمل عليـها فصـول الكلام موضعـه الأخص الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، وإما ذهاب الرونق الذي يكون منه سـقوط البـلاغة»[1]، فقـد جاء القرآن في نظمـه البديع، وتأليفه العجيب متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعجز عنه البشر.

والبـاقلانيّ (ت٤٠٣هـ) يرد إعـجاز القـرآن إلى النظم، ويسـوق لذلك أسبـابًا عدة»[2]، وقبل أن نذكر هذه الأسباب يجـمل بنا أن نورد معنى النظم عند الباقلاني كمـا يفسره لنا حين يقول: «وليس الإعـجاز في نفس الحروف، وإنما هو في نظمـها وإحكام رصفـها، وكونها على وزن مـا أتى به النبي ﷺ، وليس نظمها أكـثر من وجودها متقدمة ومتأخرة، ووجود بعضها قبل ووجود بعضها بعد بعض».

والأسباب التي ذكرها الباقلاني تتلخص في:

١ - إن النظم يباين المألوف من كلام العرب، ويتميز عن أساليبهم المعتادة رغم تعدد مذاهبه وتصرف وجوهه، فالقرآن ليس سجعًا، وليس شعرًا، وليس خطابة، وليس جاريًا مجرى الرسائل.

---

(١) بيان إعـجاز القرآن للخـطابي ص٢٤-٢٦، وانظر: أثر البلاغة في تفسـير الكشاف، د. عمـر الملاجويش ص٩٢، ط. بغداد.

(٢) التمهيد ص١٢٥، ١٢٦، إعجاز القرآن ص٣٥-٤٧.

٢- إن العرب رغم فصاحتهم لم يشتمل كلامهم على القدر الوافي من الفصاحة والإبداع، سواء في المعاني أو الفوائد أو الحِكم التي اشتمل عليها القرآن بهذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة ربما وقع فيها الاختلال واعترضها الاختلاف وشملها التكلف، والقرآن رغم طوله وكثرة سوره وآياته متناسب لم يطرأ عليه الاختلال أو الاختلاف، أو التكلف، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] .

فالله يخبرنا أن كلام البشر يقع فيه الاختلال، ويطرأ عليه التفاوت إن امتد وطال، ولكن القرآن بما يتضمنه من القصص والمواعظ، والإعذار، والإنذار، والوعد والوعيد، والتبشير والتخويف، والسير المأثورة، وتعليم الأخلاق الكريمة والشيم الرفيعة، لا نجد فيه تفاوتًا أو اختلافًا، وإنما جاء كله على درجة رفيعة من البلاغة والفصاحة، والجمال والإبداع، وعلى حد واحد من حسن النظم وبديع الرصف، أما إذا نظرت إلى كلام البليغ الكامل، أو الشاعر المفلق، أو الخطيب المصقع رأيت التباين، ولحظت الاختلاف: فالشاعر يتفاوت شعره بحسب الأحوال، فهو بارع في معنى معين، ومقصر في معنى آخر، ومنهم من يجود في غرض ويضعف في غيره، ولكل شاعر نصيب من الإجادة في فن دون فن، ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب، وكذلك ترى الاختلاف في الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام.

٣- إن نظم القرآن لم يخرج عن عادة كلام الإنس وحدهم، وإنما خرج أيضًا عن عادة كلام الجن، فالعرب تعتقد في مخاطبة الجن، وروت لهم شعرًا وحكت لهم كلامًا والله حكى عن الجن ما تفاوضوا فيه من القرآن فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] ، والقدر الذي نقله الناس من ذلك تأمله النقاد فلم يجدوا فيه فصاحة تفوق فصاحة كلام الإنس، بل لعله يقصر عنها، فالجن إذن تقصر عن الإتيان بمثل القرآن كما يقصر البشر عن الإتيان بمثله، وقال عز وجل:

﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] .

٤- إن القرآن اختار ألفاظه ليعبر عن معاني مبتكرة في وضع الشريعة والأحكام والاحتجاج في أصل الدين والرد على الملحدين، ومعلوم أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعاني مبتكرة وأسباب مستحدثة، ثم إذا وجدت الألفاظ وفق المعاني، والمعاني وفق الألفاظ في انسجام تام وتأليف دقيق كانت البراعة أظهر والفصاحة أتم.

٥- إن صناديد العرب وأعيانهم ووجوههم وفصحاءهم سلموا بتقدم القرآن في الفصاحة والبلاغة، وأظهروا العجز عن معارضته، ووصفوه بالحلاوة والطلاوة، وأنه يعلو كلام البشر ولا يعلى عليه، وأما قوله تعالى حكاية عن بعضهم: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا﴾ [الأنفال: ٣١] ، فهو قول أهل الضعف من صنعة البلاغة دون المتقدمين فيها، أو أنهم كاذبون فيما أخبروا عن أنفسهم، إذ لو كانوا صادقين وقادرين على المعارضة لما اقتصروا على الدعوى أو اكتفوا بالكلام عن المماثلة.

٦- إن ألفاظ القرآن بريئة من التعقيد والثقل، خفيفة على الألسنة، خارجة عن الوحشي المستكره والغريب المستنكر، ولذلك فهو قريب إلى الأفهام، تسرع ألفاظه إلى القلب وتسبق عبارته إلى النفس، وهو مع ذلك عسير المتناول ممتنع المطلب، غير مطمع يُقدر عليه أو يظفر به، أما الانحطاط عن هذه الرتبة إلى رتبة الكلام المبتذل، فليس يصح أن تقع فيه فصاحة أو بلاغة أو يوضع فيه الإعجاز. اهـ.

ولنا أن نقول: إن موضع الإعجاز في نظم القرآن لا يعود إلى ألفاظه منفردة؛ لأن العرب كانوا يأتون بهذه الكلمات صغيرهم وكبيرهم، فصيحهم وعييهم على حد سواء، وقيمة الكلمة ليست ذاتية، وإنما تخلع عليها من الكلمات مجتمعة، ولا إلى معانيه فقط؛ لأن المعاني لا وجود لها إلا بالتعبير عنها بالألفاظ، ولا إلى إعراب الكلمات؛ لأن العرب قادرون على الإتيان بعبارات خالية من اللحن

والخطأ، والإعـراب لا دخل له في الفـضل والمزية، وليس هو سـبب الفـصاحـة والبلاغة، وإن كان أساسًا في نظم الكلام.

والنظم كما ذكر عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) ليس في الألفاظ، ولا في المعاني، ولا في حركات الإعراب، بل في اتحـاد أجزاء الكلام ودخول بعضها في بعض، وارتباط الثاني بالأول، كما يتـضح في الوحدة الشاملة بين أجزاء الجملة، وبين الجـملة والجملة في مـجمـوعة من العـلاقات المنظمـة المتناسقـة بين أطراف الكلام، وبعبارة أكثر إيجازًا : النظم عند عبد القاهر هو[1] : الأسلوب كما نسميه الآن، أو كما يحلو لعبد القادر أن يسميه: توخي معاني النحو.

وابن عطية (ت٥٤١هـ) يؤكد أن إعجاز القرآن كان بسبب نظمه، وقد أخذ به الجمهور وأهل الفن في صنعة البلاغة فيقول: «وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحذاق وهو الصحيح في نفـسه، والتحدي إنما وقع بنظمه وصحـة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه.

ووجه إعـجازه. . . ترتيب ألفـاظ القرآن بحـيث تكون اللفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبيين المعنـى بعد المعنى، وهكذا من أول القرآن إلى آخـره، فبهـذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة[2] .

والعلوي (ت٧٤٩هـ) ينقل عن العـلماء أقـوالهم في وجوه إعـجاز القـرآن، ويختار من بينهـا الفصاحة والبلاغة وجودة النظم «والـذي نختاره من ذلك ما رآه الجهـابذة من أهل هذه الصناعة، فـإنهم عوَّلوا على خـواصٍّ ثلاث هي الوجه في الإعجاز، وهذه الخواص هي: الفصاحة في ألفـاظه، والبلاغة في معانيه، وجودة النظم، وحـسن السـيـاق، فـإنك ترى القـرآن منـظومًـا على أتم نظام وأحـسنه وأكمله»[3].

أما الأستاذ فريد وجدي[4] فقد سلك طريقًا آخر غير فصاحة القرآن ونظمه.

---

(١) انظر: أثر النُّحاة في البحث البلاغي للمؤلف ص ٣٦٨-٣٧٣ نهضة مصر.

(٢) ابن عطية : ١/ ٧١ . (٣) الطراز: ٣/ ٤٠٤ .

(٤) دائرة معارف القرن العشرين، مادة قرأ، المجلد ٧ .

وغير الصرفة التي ذهب إليها بعض العلماء مثل النظام (ت٢٢٤هـ)، وابن سنان الخفاجي (ت٤٦٦هـ) .

فالقرآن روح من أمر الله، وله عندنا روحانية خاصة هي عندنا جهة إعجازه، والسبب الأكبر في انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة منه.. هذه الروحانية العالية هي التي قلبت شكل العالم، ووطأت للعرب عروش الأكاسرة والقياصرة في مدة وجيزة، فالله ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [غافر: ١٥] ، ولا مشاحة في أن القرآن فصيح قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وملوك البيان، وهو حكيم، وهو حق، وله صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول، فتتحكم فيها تحكم المَلك في ملكه.. وله فوق بلاغته وعذوبته وحكمته وبيانه روحانية يدركها من لا حَظّ له في فهم الكلام وإدراك البلاغة. هذه الروحانية تظهر للعارف باللغة والجاهل بها، وظهورها للجاهل بها من الأمم الأعجمية بتأثيرها ونتيجتها.

والله وصف كتابه بأوصاف عديدة بأنه بيان وهدى وموعظة، وأنه بينات ورحمة، مما يشير بأن وجه إعجاز القرآن في وجه غير البلاغة العظيمة، حتى إن الرجل العامي والصبي الجاهل يعتريهما تهيّب عند تلاوة القرآن.. ولو كانت تلاوته بصوت غير حسن.

❁❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ عبد القاهر بن عبد الرحمن ﵀: الحمدُ لله ربِّ العالمين حَمْدَ الشاكرين، وصلواتُه على النبيِّ محمد وآله أجمعين.

جمل من القول في إعجاز القرآن

١ - اعلمْ أنّ لكلِّ نوعٍ من المعنى نوعًا من اللفظ هو به أخصُّ وأَوْلَى، وضروبًا من العبارة هو بتأديته أقومُ، وهو فيه أجْلَى، ومأخذًا إذا أُخذ منه كان إلى الفهم أقربَ، وبالقَبُول أخْلَق، وكان السَّمْع له أَوْعَى، والنفس إليه أَميلُ. وإذا كان الشيء متعلقًا بغيره، ومَقيسًا على ما سواه[١]، كان من خير ما يُسْتَعَان به على تقريبه من الأفهام، وتقريره في النفوس، أنْ يوضع له مثالٌ يكشف عن وَجْهِه ويُؤْنَس به[٢]، ويكون زِمَامًا عليه يُمْسكه على المُتَفَهِّم له والطالبِ عِلْمَهُ.

❁❁❁

٢- وهذه جُمل من القول في بيانِ عَجْز العرب حين تُحُدُّوا إلى معارضة القرآن، وإذعانهم وعلْمهم أنَّ الذي سمعوه فائتٌ للقوى البشرية، ومُتجاوزٌ للذي يتَّسع له ذَرْعُ المخلوقين[٣]، وبما يَتَّصل بذلك ممّا له اختصاصٌ بعلم أحوال الشعراء والبلغاء ومراتبهم، وبعلم الأدب جُمْلة قد تحرَّيت فيها الإيضاح والتبيين، وحَذَوْتَ الكلام حذواً[٤] هو بعُرْف علماء العربية أشبهُ، وفي طريقهم أذهبُ، وإلى الأفهام جُمْلةً أقربُ. وأسأل اللهَ التوفيقَ للصوابِ والعونَ عليه، والإرشاد إلى كُلِّ ما يُزْلِف لديه[٥]، إنه على ما يَشَاءُ قديرٌ.

❁❁❁

---

(١) مقيسًا على ما سواه: قدره على مثاله.

(٢) يؤنس به: يزيل وحشته.

(٣) ذرع المخلوقين: طاقتهم.

(٤) حذوت الكلام: قطعته.

(٥) يزلف لديه: يقرب إليه.

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول الشيخ عبد القاهر الجرجاني رضي الله عنه:

١- كل معنى من المعاني يعبر عنه بلفظ خاص به حتى يؤديه كما هو، أو يعبر عنه بعبارة توضحه وتجلّيه، فيكون أقرب إلى الفهم وأجدر بالقبول، وخير ما يُستعان به على تقريب المعنى إلى الأفهام، أن يُوضَع له مثال يكشف عنه ويُؤتنس به.

❁❁❁

٢- يورد عبد القاهر مجموعة من الأقوال تبين عجز العرب حين تحداهم الرسول ﷺ إلى معارضة القرآن، واعترافهم بأن الذي سمعوه من القرآن خارج عن طوق البشر، كما ذكر أحوال الشعراء ومراتبهم، والبلغاء وتفاوتهم، ونحا في إيضاحه وبيانه إلى ما تعارف عليه علماء العربية من بلاغة القول وحسن العبارة، ويسأل الله التوفيق والسداد في هذه المهمة.

❁❁❁

٣- معلومٌ أن سَبيلَ الكلامِ سبيلُ ما يدخله التفاضُلُ، وأنّ للتفاضُلِ فيه غايات ينأى بعضُها عن بعض ومنازلِ يعلُو بعضُها بعضًا، وأن علْمَ ذلك علمٌ يَخصّ أهله، وأن الأصل والقُدوة فيه العربُ، ومن عداهم تَبَعٌ لهم، وقاصرٌ فيه عنهم، وأنَّهُ لا يجوزُ أن يُدَّعَى للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي ﷺ الذي نَزَل فيه الوحي، وكان فيه التَّحدي، أنهم زادوا على أولئك الأوَّلين، أو كَمَلُوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يَكْملُوا له، كيفَ؟ ونحن نراهم يُخمِلُون عنهم أنْفُسَهُم[(١)]، ويبرأون من دَعْوى المداناة معهم، فضلاً عن الزِّيادة عليهم.

هذا خَالدُ بن صَفْوان يقول: «كيف نُجَاريهم وإنَّمَا نَحكيهم؟ أَمْ كيف نُسابقُهم، وإنما نجري على ما سَبَق إلينا من أَعْراقهم؟»[(٢)].

ونَرى الجاحظ[(٣)] يَدّعي للعربِ الفضلَ على الأمم كُلِّها في الخطابة والبلاغة، ويُناظر في ذلكَ الشُّعُوبيةَ[(٤)]، ويُجَهِّلهم ويُسَفِّه أحلامهم في إنكارهم ذلك، ويقضي عليهم بالشِّقوة وبالتَّهالك في العصبية، ويُطيل ويُطْنب[(٥)]، ثم يقول:

«ونحن أبقاك اللـه إذا ادَّعَيْنا للعرب الفضلَ على الأمم كلِّها في أصناف البلاغة، من القصيد والأَرْجَاز[(٦)]، ومن المنثور والأَسْجَاع[(٧)]، ومن المُزْدَوَج[(٨)] وما لا يَزْدَوِج، فَمَعَنَا- على أنَّ ذلك لهم- شاهدٌ صادقٌ، من الدِّيباجة[(٩)] الكريمة، والرَّونَق العجيب، والسَّبْك[(١٠)] والنَّحْت الذي لا يستطيع أشعرُ النَّاس اليومَ ولا أَرْفَعُهم في البيان أن يقولَ مثْلَ ذلك، إلاَّ في اليسير والشيء القليل». انتهى كلامه.

والأمر في ذلك أظهر مَن أن يخفَى، أو أن يُنكره إلا جاهلٌ أو معاندٌ.

❁❁❁

٤- وإذا ثبت أنهم الأصلُ والقُدْوةُ، فإنّ علْمَهم العلمُ، فَبنَا أن نَنْظُر في دلائل أحوالهم وأَقْوالهم حين تُلي عليهم القرآن وتُحُدُّوا إليه، ومُلِئَتْ مسامعه من المُطالبة بأن يأتوا بمثله، ومن التَّقريعِ بالعجز عنه، وبَتِّ الحكم بأنهم لا يستطيعونه ولا يقدرون عليه.

وإذا نظرنا وجدناهم تُفْصح بأنَّهم لم يشكوا في عَجْزهم عن معارضته والإتيان بمثله، ولم تُحَدِّثهم أنْفُسُهم بأنَّ لَهُم إلى ذلك سبيلاً على وجه من الوجوه.

(١) يخملون عن أنفسهم: يخفضونها.
(٢) من أعراقهم: أصولهم.
(٣) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥هـ).
(٤) الشعوبية: نزعة تحاول الحط من شأن العرب.
(٥) يطيل ويطنب: يزيد في الكلام ويكثر.
(٦) الأرجاز: جمع أرجوزة، وهو ضرب من الشعر متتابع الصوت واللحن.
(٧) كلام مقفى غير الموزون.
(٨) المزدوج: شبه بعضه بعضًا في السجع أو الوزن.
(٩) الديباجة الكريمة: الأسلوب الحسن.
(١٠) سبك الشيء: انصهاره وإفراغه في قالب.

٣- للكلام منازل يعلو بعضها بعضًا ويتفاضل بعضه على بعض، والأصل في حسن القول وجمال العبارة للعرب، ومن عداهم تبع لهم.

ولا يجوز للمتأخرين عن زمن النبي ﷺ أن يقولوا: إنهم زادوا على الخطباء والبلغاء في زمن النبي شيئًا؛ بل نراهم يضعون من أنفسهم ويعلون من شأن الأولين، فهم يحاكونهم ويحاولون السير على منوالهم.

والجاحظ يدعي للعرب الفضل على الناس قاطبة في البلاغة والخطابة، ويناظر في ذلك غير العرب ويجهلهم ويسفه أحلامهم في إنكارهم فضل العرب، والأمر في ذلك ليس خافيًا على أحد، ولا ينكره إلا جاهل أو معاند.

✿✿✿

٤- وإذا ثبت أن الأصل والقدوة في البلاغة هم العرب، فينبغي علينا أن ننظر في أقوالهم وأحوالهم حين تحداهم الرسول ﷺ أن يأتوا بمثل القرآن، وتلى عليهم التحدي المرة تلو المرة، واعترفوا بعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله في كل مرة، ولم تكن لديهم بارقة أمل في معارضة القرآن بأي وجه من الوجوه .

✿✿✿

(دلائل أحوال العرب وأقوالهم)

٥- أمَّا «الأحوال» فدلَّت من حيثُ كان المتعارَفُ من عادات الناس التي لا تختلف، وطَبائعهم التي لا تتبدَّل، أنْ لا يسلِّموا لخصومهم الفضيلةَ وهم يجدون سبيلاً إلى دفعها، ولا يَنتحلون العجزَ(١) وهم يستطيعون قَهْرهم والظهورَ عليهم، كَيفَ؟ وإن الشاعرَ أو الخطيبَ أو الكاتب يبلغه أنَّ بأقصى الإقليم الذي هو فيه من يبأى بنفسه(٢)، ويُدِلُّ(٣)، بشعْر يقوله، أو خُطْبة يقوم بها، أو رسالة يعملها، فَيَدْخُله من الأَنَفَة(٤) والحَميَّة ما يدعوه إلى معارضته، وإلى أنْ يُظهر ما عنده من الفضل، ويَبذُل ما لديه من المُنَّة(٥)، حتى إنه ليتوصَّل إلى أن يكْتُب إليه، وأن يعْرِض كلامه عليه، ببعض العلَل وبنوع من التَّمَحُّل هذا، وهو لم ير ذلك الإنسان قطُّ، ولم يكن منه إليه ما يَهُزُّ ويُحَرِّك ويهيجُ على تلك المعارضة، ويدعُو إلى ذلك التَّعَرُّض.

وإن كان المُدَّعي ذلك بمرأى منه ومَسْمَع، كان ذلك أدعى له إلى مُباراته، وإلى إظهار ما عنده، وإلى أن يعرف الناسُ أنَّه لا يُقَصِّر عنه، أو أنَّه منه أفضلُ.

فإنْ انضافَ إلى ذلك أن يَدْعُوَه الرجلُ إلى مُماتَنَته(٦)، ويُحَرِّكه لمُقاوَلته(٧)، فذلك الذي يُسهر ليلَهُ ويَسلُبُه القرارَ، حتى يَستفرغَ مجهودَه في جَوابه، ويبلغ أقْصَى الحَدِّ في مُناقضته.

وقد عرفتَ قصَّة جرير والفرزدق(٨)، وكُلَّ شاعرين جمعَهما عصرٌ، ثم عَرَض بينهما ما يَهيج على المقاولة، ويدعُو إلى المفاخرة والمنافرة(٩)، كيف جَدَّ كلّ واحد منهما في مغالبة الآخر، وكيف جعل ذلك هَمَّه وَكُدَه(١٠)، وقَصَر عليه دهره؟ هذا، ولَيْس به، ولا يَخشَى إلا أن يُقضَى لصاحبه بأنه أشْعرُ منه، وأنّ خاطَره أَحَدُّ، وقوافيَهُ أشْرَدُ(١١)، لا يُنازعه مُلكًا، ولا يفتَاتُ عليه(١٢) بغَلَبته له حَقًا، ولا يُلْزِمه به إتَاوةً(١٣)، ولا يضرب عليه ضريبة؟

---

(١) لا ينتحلون العجز: لا يدعونه. (٢) يبأى بنفسه: يفخر. (٣) يدل بشعره: يباهي به.
(٤) أنف: استكبر، أي ادعى التكبر والشموخ. (٥) المنّة: القوة.
(٦) مماتنته: ليظهر أيهما أمتن وأقوى في حجته. (٧) مقاولته: مفاوضته في القول أيًا كان.
(٨) جرير والفرزدق: شاعران في العصر الأموي. (٩) المنافرة: المخاصمة.
(١٠) وكده: هدفه وقصده. (١١) قوافيه أشرد: أكثر انتشاراً.
(١٢) افتات عليه: انكسر أمامه. (١٣) إتاوة: جزية.

٥- فمن عادة الناس التي جبلوا عليها ألاَّ يسلموا بالعجز وهم قادرون على دفعه، فالشاعر أو الخطيب أو الكاتب إذا بلغه من بعيد أن هناك من يفخر بشعره أو خطبته أو برسالة كتبها دخلت الحمية نفسه واشتد لمعارضته .

أما إذا كان المدعي بمرأى منه ومسمع كان ذلك أدعى إلى معارضته، وأنه لا يقصر عنه؛ بل يفوقه موهبة وأداء.

وإذا أضيف إلى ذلك أن صاحب الرسالة يدعوه إلى المعارضة ويحركه للمقاولة، كان ذلك بمثابة الدفعة له أن يبلغ أقصى ما عنده؛ ليصمد أمام الدعوة ويعمل على مناقضته والتغلب عليه .

وهذا ما حدث بين كل اثنين جمعهما عصر واحد، حدث بين جرير والفرزدق، وأبي تمام والبحتري، والمتنبي وأبي فراس، حيث جدّ كل واحد في التغلب على الآخر، وأخشى ما يخشى الشاعر أن يحكم لخصمه أنه تغلب عليه، وأن شعره أجود أو خاطره أحدّ.

❁❁❁

٦- وإذا كان هذا واجبًا بين نَفْسين لا يَرُومُ[١] أحدُهما من مُباهاة صاحبه إلا ما يَجْرِي على الألسُن من ذكْره بالفَضْل فقط، فكيف يجوز أن يظهر في صَميم العرب، وفي مثل قُريش ذوي الأنفس الأبيَّة والهمَم العليَّة، والأنفَة والحَميَّة مَنْ يَدَّعي النبوَّة، ويخبرُ أنه مبعوثٌ من الله تعالى إلى الخلق كافَّة، وأنه بَشيرٌ بالجنَّة ونذيرٌ بالنَّار، وأنه قَدْ نَسَخَ به كل شريعة تقدَّمته، ودين دان به الناس شَرْقًا وغربًا، وأنَّه خاتَمُ النبيين، وأنه لا نَبيَّ بعده، إلى سَائر ما صَدع به ﷺ[٢] ثم يقول: «وحُجَّتي أن الله تعالى قد أنزل عَلَيَّ كتابًا عربيًا مُبينًا تَعْرِفُون ألفاظه، وتفهمون معانيه، إلا أنَّكُم لا تقدرون على أن تأتوا بمثله، ولا بعَشْر سُور منه، ولا بسُورة واحدة، ولو جَهدتم جَهْدكم، واجتمع معكم الجنُّ والإنسُ»، ثم لا تدعُوهم نُفوسُهم إلى أنْ يعارضوه، ويُبيِّنوا سَرَفَهُ[٣] في دعواه، مع إمكان ذلك، ومع أنَّهم لم يسمعوا إلا ما عنْدهم مثلُه أو قريبٌ منه؟

هذا، وقد بلغ بهم الغَيْظُ من مقالته، ومن الذي ادَّعاه، حَدًا تركوا معه أحلامَهم الرَّاجحة، وخرجُوا له عن طاعة عُقولهم الفاضلة، حتى واجهوه بكُلِّ قبيحٍ ولَقُوهُ بكل أذًى ومكروه، ووقَفُوا له بكل طريق، وكادُوه وكُلَّ من تَبعَه بضروب المكايدة، وأرادوهم بأنواع الشَّر.

وهل سُمعَ قَطُّ بذي عقل ومُسْكَة[٤] استطاع أنْ يُخرِس خصمًا له قد اشْتَطَّ[٥] في دعواه بكلمة يُجيبه بها، فتَرَكَ ذلك إلى أُمُور يُسَفَّه فيها، ويُنْسَب معها إلى ضيق الذَّرْعِ[٦] والعَجْز، وإلى أنَّه مغلوب قد أعْوَزَتَه[٧] الحيلة، وعَسُرَ عليه المخلص؟[٨]

أم هَلْ عُرف في مَجْرى العادات، وفي دَوَاعي النفوس ومَبْنَى الطبائع، أنْ يَدَعَ الرجلُ ذو اللُّبِّ[٩] حُجَّته على خصمه، فلا يَذْكُرَها، ولا يُفْصح بها، ولا يُجلِّي عن وجهها، ولا يُريه الغلطَ فيما قال، والكذبَ فيما ادَّعَى، لا، ولا يَدَّعِي أنَّ ذلك

(١) يروم: يود.
(٢) صدع به: جهر به.
(٣) يبينوا سرفه: إسرافه.
(٤) مسكة: ما يتمسك به ويحرص عليه.
(٥) اشتط: أمعن وجاوز الحد.
(٦) ضيق الذرع: ضعف القدرة.
(٧) أعوزته الحيلة: افتقدها.
(٨) وعسر عليه المخلص: صعب عليه التخلص.
(٩) ذو اللب: ذو العقل.

٦- وإذا كان هذا حادثًا بين شخصين لا يود أحدهما من معارضة الآخر سوى أن يحكم له بالفضل، فكيف إذا كان هذا الأمر في قريش ذوي الأنفة والحمية وظهر بينهم من يدعي النبوة، ويخبر أنه مبعوث من الله للخلق كافة إنسٍ وجن مبشرًا بالجنة ومنذرًا بالنار، وأنه خاتم النبيين، وقد نزل عليه كتاب تعرفون ألفاظه وتدركون معانيه، وتعجزون عن مجاراته أو الإتيان بمثل أقصر سورة منه، ثم لا تدعوهم أنفسهم إلى معارضته وبيان إسرافه في دعواه .

وقد بلغ بهم الغيظ مبلغًا شديدًا حتى لقوه بكل أذى ومكروه، وهل سمع قط أن صاحب عقل استطاع أن يباري خصمه، فترك مباراته وأظهر العجز وضيق الجهد، وأنه مغلوب لم يبق أمامه سوى الخضوع والتسليم؟

***

عنده، وأنَّه مستطيع له، بَلْ يَجْعَلُ أوَّل جَوابه له ومعارضته إيَّاه، التَّسَرُّعَ إليه والسَّفَهَ[١] ، والإقدامَ على قَطْعِ رَحِمه، وعلى الإفراط في أذاه؟

أم هل يجوزُ أنْ يخرجَ خارجٌ من الناس على قومٍ لهم رياسة، ولهم دينٌ وَنحْلَةٌ[٢] ، فيُوَلِّبَ[٣] عليهم الناس، ويُدبِّرَ في إخراجهم من ديارهم وأموالهم، وفي قَتْل صَناديدهم[٤] وكبارهم، وسَبْي[٥] ذَرَاريهم وأولادهم، وعُمْدَتُه التي يجد بها السبيلَ إلى تألُّف من يَتَألَّفه، ودُعاء من يدعوه، دَعْوَى لَهُ، إذا هي أُبْطلت بَطَل أَمرُه كُلُّه، وانتقَضَ عليه تدبيره، ثُمَّ لا يُعْرَض لَه في تلك الدَّعْوَى، ولاَ يُشْتَغَل بإبطالها، مع إمكان ذلك، ومع أنَّه ليس بمتعذِّر ولا ممتنع؟

وهل مَثَلُ هذا إلا مَثَلُ رَجُلٍ عَرَض له خَصْمٌ من حيث لم يَحْتَسِبْه[٦] ، فادَّعَى عليه دعوى إنْ هي سُمِعَت كان منها على خَطَرٍ في ماله ونفسه، فأحضر بينة[٧] على دَعْواه تلك، وعند هَذَا المدَّعَى عليه ما يُبْطل تلكَ البيِّنَة أو يعارضُها، وما يَحُول على الجُمْلة بينه وبين تَنْفيذ دَعْوَاه[٨] ، فيدَعُ إظهار ذلك والاحتجاجَ به، ويُضْرِب عنه جُمْلَةً[٩] ، ويدَعُه وما يُريد من إحكام أمره وإتمامه، ثم يصيرُ الحالُ بينهما إلى المُحاربة، وإلى الإخطار بالمُهَج[١٠] والنُّفُوس، فيُطاوِلُه الحربَ، ويُقْتَل فيها أولاده وأعزَّته، وتُنْهَكُ عشيرته، وتُغْنَم أموالُه، ولا يَقَعُ له في أثناء تلك الحال أن يرجع إلى القاضي الذي قضى لخصمه بَدِيًّا[١١] ولا إلى القوم الذين سَمِعُوا منه وتصوَّروه بصورة المحقِّ فيقول: «لقد كانت عندي- حين ادَّعَى ما ادعَى - بينةٌ على فساد دعواه وعلى كَذِب شهوده، قد تركتها تَهَاوُنًا بأمره، أو أُنْسيتها، أو مَنَع مانعٌ دون عَرْضِها، وها هي هذه قد جئتكم بها، فانظروا فيها لتَعْلَمُوا أنكم قد غُرِرْتم؟»[١٢] . ومعلوم بالضرورة أن هذا الرجل لو كان من المجانين، لما صحَّ أن يفعلَ ذلك، فكيف بقوم هم أرجحُ أهل زمانهم عقولاً، وأكمَلُهم معرفةً، وأجزلهم رأيًا، وأثقبهم[١٣] بصيرة؟ فهذه دلالة «الأحوال».

---

(١) سفه الرجل: خف وطاش وجهل.

(٢) نحلة: مذهب وعقيدة.

(٣) يؤلب عليهم الناس: يحرضهم عليه ويغريهم به.

(٤) صناديدهم: رؤساؤهم وزعماؤهم.

(٥) سبي ذراريهم: أسر أولادهم ومن خروج من أصلابهم.

(٦) لم يحتسبه: لم يتوقعه.

(٧) البينة: الدليل والحجة.

(٨) تنفيذ دعواه: إبطال ما ادعاه.

(٩) ويضرب عنه جملة: يتركه تمامًا.

(١٠) المهج: جمع مهجة وهي الروح.

(١١) بديًا: من أول الأمر.

(١٢) غررتم: خدعتم.

(١٣) أثقبهم بصيرة: أشدهم وأقواهم حجة.

وهل جرت العادة أن يدع اللبيب حجته فلا يذكرها ولا يبدي لخصمه الغلط فيما قال، ويسرع في تسفيهه ويفرط في أذاه؟

وهل يجوز أن يواجه رجل قومًا لهم دين ورئاسة فيثير عليهم الناس، ويدبر في قتل كبارهم وأشرافهم وسبي ذراريهم وأولادهم، ثم لا يعرضون له في دعواه، مع أنه ليس بمتعذر ولا ممتنع، وإنما هو أمر سهل ميسور؟

وهل مثل ذلك إلا مثل رجل أتى بدعوى وأحضر بينة على دعواه، وعند المدعي عليه ما يبطل تلك الحجة، فيدع إظهار ذلك ويلجأ إلى الخصومة والمحاربة التي يقتل فيها القريب والصديق، ويسلب منه المال والعتاد، ثم يقول: لقد تركت مقارعته الحجة بالحجة تهاونًا بأمره، ولو كان هذا الرجل من المجانين لما صح منه أن يفعل ذلك، فكيف بقومٍ هم أرجح الناس رأيًا وأثقبهم بصيرة؟

❁❁❁

(دلائل: الأقوال الدالة على عجز العرب حين تحدوا بالقرآن)

٧- وأمَّا «الأقوالُ» فكثيرة:

منها حديث ابن المُغيرة، رُوِيَ أنه جاءَ حتى أتَى قُرَيْشًا فقال: إن النَّاسَ يجتمعون غدًا بالموسم، وقد فَشَا[1] أَمْرُ هذا الرجل في الناس، فَهُمْ سائلوكم عنه فماذا تَرُدُّون عليهم؟ فقالوا: مجنُون يُخْنَق[2]، فقال: يأتُونه فيكلِّمونه فَيَجدُونَه صحيحًا فصيحًا عاقلاً، فيكذِّبُونكم! قالوا: نقول: هو شاعر، قال: هم العَرَبُ، وقد رَوَوْا الشعر، وفيهم الشعراء، وقوله: ليس يُشْبه الشعر، فيكذِّبونكم! قالوا: نقول: هو كاهنٌ، قال: إنهم لَقُوا الكُهَّان، فإذا سمعوا قَوْلَهُ لم يجدوه يُشْبه الكَهَنة، فيكذِّبونكم!

ثم انصرف إلى منزله فقالوا: صَبَأَ الوليد - يعنون: أسلم- ولئن صَبَأَ لا يبقى أحدٌ إلا صَبَأ، فقال لهم ابن أخيه أبو جهل بن هشام بن المغيرة: أنا أكْفيكُمُوه[3]، قال: فأتاه محزونًا، فقال: ما لكَ ياابن أخ؟ قال: هذه قريشٌ تجمَعُ لك صَدَقةً يتصدَّقُون بها عليك، تستَعين بها على كبَرِك وحَاجتك، قال: أولستُ أكثر قريش مالاً؟! قال: بَلَى، ولكنهم يزعُمون أنكَ صَبَأت لتُصيب من فَضْل طعامِ محمد وأصحابه، قال: والله ما يَشْبَعون من الطعام، فكيف يكون لهم فضول؟!

ثم أتَى قريشًا فقال: أتزعمن أني صَبَأتُ؟ ولَعَمْري[4] ما صبأتُ، إنكم قلتم: محمَّد مجنونٌ، وقد وُلد بين أظْهُركم[5] لم يغبْ عنكم ليلةً ولا يومًا، فهل رأيتموه يُخْنَق قطُّ؟ فكيف يكون مجنونًا ولم يُخْنَقْ قطُّ؟ وقلتم: شاعر؟ وأنتم شُعراء، فهل أحد منكم يقول ما يقول؟ وقلتم: كاهن، فهل حدَّثكم محمد في شيء يكون في غد إلا أن يقولَ: إن شاء الله! قالوا: فكيف تقول ياأبا المغيرة؟ قال: أقولُ هو ساحرٌ، فقالوا: وأي شيء السِّحْرُ؟ قال: شيء يكون ببابل[6]، مَنْ حَذَقه[7] فَرَّق

---

(١) فشا أمر: انتشر.

(٢) مجنون يختق: به داء وعلة.

(٣) أكفيكموه: أمنعه عن اتباع محمد.

(٤) لعمري: قسمي.

(٥) بين أظهركم: بينكم ولا يخفى عليكم أمره.

(٦) بابل: مدينة قديمة بأرض الرافدين.

(٧) حذقه: مهارته.

٧- هذه كانت أحوالهم، أما أقوالهم فكثيرة، منها: حديث ابن المغيرة- وكان سيدًا في قومه، وله هيبة في قريش كلها- الذي أتى مجلس قريش وقال: لقد انتشر أمر محمد والناس يأتون غدًا ويسألونكم عنه، فماذا تقولون؟ وبماذا تردّون؟ قالوا: نقول: إنه مجنون، قال: يأتونه فيكلمونه فيجدونه عاقلاً فصيحًا فيكذبونكم.

نقول: إنه شاعر، قال: إن كلامه لا يشبه الشعر فيكذبونكم.

نقول: هو كاهن، قال: إن قوله لا يشبه ما يقوله الكهان.

قالت قريش: لقد أسلم الوليد، وسوف يتبعه خلق كثير في الإسلام، وخافوا على مكانتهم.

❁❁❁

بين الرجُل وامرأته، والرجل وأخيـه، إنَّا لله، أما تعلمون أنَّ محمـداً فرَّق بين فُلان وفـلانة زوجتـه، وبين فُلانَ وابنه، وبـينَ فُلان وأخـيه، وبين فُـلان ومواليـه[1]، فلا ينفعهم ولا يلتفتُ إليهم ولا يأتيهم؟ قالوا: بلى، فاجتمع رأيهم على أن يقولوا: إنه ساحرٌ، وأن يردُّوا الناس عنه بهذا القول.

وانصـرف، فمـرَّ بأصحـاب النبي ﷺ مُنطَلقًـا إلى رَحْله، وهـم جلوس في المسجد، فـقالوا: هل لك ياأبا المغيرة إلى خيـر؟ فرجع إليهم فقال: مـا ذَلك الخير؟ فقالوا: التـوحيد، قال: ما يقول صـاحبكم إلا سحراً، وما هُو إلا قـولُ البَشَر يَرْويه عن غيره، وَعَـبَس في وجوههم وبَسَرَ[2] ثم أَدْبَرَ[3] إلى أهله مُكَذِّبًا، واستكبر عن حديثـهم الذي قالوا له وعن الإيمان، فـأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ (١٨) فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨،١٩] الآية.

٨- ومنه ما رواه محمد بن كعب القُرَظي قال[4] : حُدِّثت أنَّ عُتبة بن ربيعة - وكان سيِّدًا حليمًا- قال يومًا: ألا أقُومُ إلى مَحـمَّد فأُكلِّمه فأعرضُ عليه أُمورًا لعلّه أن يقبلَ منهـا بعضها، فنُعْـطيه أيَّهَا شَاءَ؟ - وذلك حين أَسْلَم حَـمْزَةُ[5] رضي الله عنه، ورأوا أصحابَ النبيِّ ﷺ يكثرون- قالوا: بـلى يا أبا الوليد! فقام إليه، وهو ﷺ جـالس في المسجـد وَحْـدَه، فقـال: يا ابن أخي! إنَّك منَّا حـيثُ علمتَ من السِّطَه في العشيرة[6] والمكان في النَّسب، وإنَّك أتيتَ قومَك بأَمر عظيم، فرَّقْت بَيْنَ جماعتـهم، وسَفَّهْتَ[7] أحلامهم، وعـبْتَ آلهَتَهُم، وكَفَّـرت من مَضى من آبائهم، فاسـمع منِّي أعْرِض عليك أُمـوراً تَنْظُر فيـها، لعلك أن تقـبَلَ منها بعضَـها، فـقال رسول الله ﷺ : قُـل، قال: إنْ كُنتَ إنَّمَا تريـدُ المالَ بِمَا جئتَ به مـن هذا القول،

---

(١) الموالي: تطلق علي العبيد وهو المراد هنا .

(٢) عبس وبسر: قطب وجهه وزاد عبوسًا .

(٣) أدبر: عاد .

(٤) جاءت هذه الرواية في سيرة ابن هشام: ١/ ٣١٣، كما يقول الأستاذ شاكر .

(٥) حمزة هو عم النبي ﷺ .

(٦) السطة في الحسب: الشرف والمكانة .

(٧) سفهت أحلامهم: وصفت عقولهم بالسفه .

ذهب أبو جهل إلى الوليد بن المغيرة يحاول أن يثنيه عن عزمه؛ لأنه قد دخل الإسلام في ظنه .

أتى الوليد قريشًا فقال: أتزعمون أني دخلت في الإسلام، وأقسم إني ما فعلت.

قلتم: إن محمدًا مجنون وليس هو بمجنون .

وقلتم: إنه شاعر وليس كذلك فأنتم شعراء.

وقلتم: إنه كاهن، ولا يتحدث بشيء، إلا أن يقول: إن شاء الله.

وإنما أقول: إنه ساحر يفرق بين الرجل وزوجه، وبين الأب وابنه، وبين المرء وأخيه ومواليه، فاجتمع رأيهم على الأخذ برأي الوليد بن المغيرة: بأنه ساحر.

ترك قريشًا ومر بأصحاب الرسول وهم في المسجد، فقالوا له: هل لك في التوحيد فهو خير من الشرك؟ قال لأصحاب محمد: إنه ساحر، وما قوله إلا رواية عن غيره، وعبس في وجوههم وعاد إلى أهله مكذبًا مستكبرًا .

❁❁❁

٨- أسلم حمزة عم الرسول ﷺ ، وتبعه جمع من الناس، فقام عتبة بن ربيعة وكان سيدًا حليمًا مشركًا إلى رسول الله، وهو في المسجد وحده يريد أن يغريه بترك الدعوة إلى التوحيد، قال له:

إن كنت تريد مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تصبح أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا، وإن كنت تريد مُلْكًا جعلناك مَلِكًا علينا، وإن كان الذي مسّك طائف من الجن دعونا لك الطبيب حتى نبرئك من علّتك.

❁❁❁

جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كُنْتَ تُريد شَرَفًا سوَّدناك(١) حتى لا نقطع أَمْرًا دُونك، وإن كنتَ تريدُ به مُلكًا ملَّكناكَ علينا، وإن كانَ هذا الذي بك رَئِيًا لا تستطيع ردَّه عن نَفْسك(٢) ، طلبنا لك الطبَّ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبْرِئَكَ منه، فإنَّه ربَّمَا غلب التَّابع(٣) على الرجل حتى يُدَاوَى منه، أو لعلَّ هذا شعرٌ جاشَ به صَدْرُكَ، فإنكم لعمري بني عبد المطلب تَقْدرون من ذلك على ما لا نَقْدر عليه، حتى إذا فَرَغَ قال له رسول الله ﷺ: أَوَقَدْ فَرَغْتَ؟ قَالَ: نعم، قال: فاسمع منِّي، قال: قُلْ، قال: بسْم الله الرَّحْمَن الرَّحيم ﴿حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١-٤] ، ثُمَّ مَضَى فيها يقرؤها، فلمَّا سَمعَها عُتْبَة أَنْصَتَ لَهُ، وأَلْقَى يَدَيْه خَلْف ظهره مُعتمدًا عليهما يَسْتَمعُ منه، حتى انتهى رسولَ الله ﷺ إلى السَّجْدَة منها فَسَجَدَ، ثم قال له: قد سمعتَ ما سمعتَ فأَنْتَ وذاكَ!

فقام عُتْبَةُ إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: لقد جاءَكم أَبُو الوليد بغَيْر الوجه الذي ذهب به(٤) ، فلما جَلَسَ قالوا: ما وراءك؟ قال: ورائي أَنِّي سمعتُ قولاً والله ما سمعتُ بمثله قطُّ، ومَا هو بالشِّعر ولا السِّحر ولا الكَهَانة، يا مَعْشَرَ قُرَيش أطيعوني، خَلُّوا بين(٥) هَذَا الرَّجُل وبين ما هو فيه واعتزِلُوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سَمعتُ نَبَأٌ(٦) ، فإن تُصبْه العربُ فقد كُفيتُمُوه بغيركم، وإن يُظْهره على العرب به، فمُلْكُه ملككم، وكنتم أَسعد الناس به، قالوا: سحرك بلسانه! قَال: هذا رأيي فاصْنَعُوا ما بَدَا لكم.

❁❁❁

---

(١) سودناك: جعلناك سيداً.

(٢)، (٣) التابع: من الجن يلازم المريض فيتبادلان الحديث، وبك رئيًا: غلب عليك الشيطان وسيطر على تصرفاتك.

(٤) جاء بغير الوجه الذي ذهب به: تغير حاله وأصبح مدهوشًا متحيراً.

(٥) خلو بينه وبين ما هوفيه: اتركوه وشأنه ولا تتعرضوا له بسوء.

(٦) نبأ: خبر.

فلما فَرَغ من كلامه قرأ الرسول ﷺ أول سورة فصلت حتى بلغ آية السجدة فسجد. وقال لعتبة: قد سمعت ما قرأت فأنت وذاك .

وعاد عتبة إلى قومه بوجه غير الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قال: إني سمعت قولاً ما سمعت مثله قط: ليس شعرًا، ولا سحرًا، ولا كهانة، فخلوا ما بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، اعتزلوه، ولا تناوشوه، فإن أصابته العرب فقد قاموا بما كنتم تريدون القيام به دون أن تلطخوا أيديكم بدمه، وإن بذّهم وانتصر عليهم كنتم أسعد الناس به، فأنتم قومه.

قالوا: سحرك محمد بلسانه وقرآنه.

قال: قلت لكم رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

✿✿✿

٩- ومنه جاءَ في حديث أبي ذَرٍّ سبب إسلامه: رُوي أنه قال: قال لي أَخِي أُنَيس:

إنَّ لي حاجةً إلى مكَّةَ، فانطَلَقَ فراثَ[١] ، فقلت: ما حَبَسَك؟[٢] ، قال: لقيت رَجُلاً يقول: إنَّ الله تعالى أرسله، فقلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون شاعرٌ، ساحرٌ، كاهنٌ. قال أبو ذرّ: وكان أُنَيسٌ أحد الشُّعَرَاء، قال: والله لقد وضعت قَولَهُ على أقْراء[٣] الشعر فلم يلتئم[٤] على لسان أحدٍ، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، والله إنَّه لصادق وإنَّهُم لكاذبون .

❁❁❁

١٠- ومن ذلك ما رُوي أنَّ الوليد بن عُقْبَة أَتَى النبيَّ ﷺ فقال: اقرأ، فقرأ عليه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠] ، فقال: أعدْ، فأعاد، فقال: والله إنَّ لَهُ لحَلاوة، وإنَّ عليه لَطَلاَوَةً، وإنَّ أَسْفَلَه لمُعْرِق[٥] ، وإنَّ أعْلاهُ لمُثْمر، وما يَقُول هَذا بَشَرٌ .

❁❁❁

(١) انطلق فراث: أي أبطأ .

(٢) ما حبسك: ما أخرك عني .

(٣) أقراء الشعر: أوزانه وبحوره وأغراضه .

(٤) لم يلتئم: لم يجر .

(٥) معرق: يضرب في الأعماق ويؤثر في النفس .

٩- ومنه ما رواه أبو ذر ﷺ قال: قال لي أخي أُنيس: إنه كان له حاجة فانطلق إلى مكة فأبطأ عليه، فقال له: ما سبب تأخيرك؟ قال: لقيت رجلاً يقول: إن الله أرسله، ويقول الناس: إنه شاعر، ساحر، كاهن.

وكان أنيس شاعراً يدرك الشعر وأقوال الشعراء، فقال: إن ما يقوله هذا الرجل لا يدخل في أوزان الشعر ولا بحوره، وليس من طرائقه أو أنواعه .

وليس كاهنًا، فأقواله ليست كأقوال الكهنة، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

❁❁❁

١٠- ومنه إعجاب الوليد بن المغيرة[١] حين استمع إلى بعض من آي القرآن، وطلب إعادتها مرة بعد أخرى، ثم قال: والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمتد إلى الأعماق، وإن أعلاه لمثمر في السماء، وما يقول هذا بشر؛ إذ لا يقدر على قوله أحد من الناس.

❁❁❁

---

(١) في النص: الوليد بن عقبة .

(الاحتجاج لدلالة هذه الأحوال والأقوال على إعجاز القرآن)

١١- واعلم أنه لا يجوز أن يقال في هذا وشبْهه إنه لا يكون دليلاً حتى يكون من قول المشركين بعضهم لبعض، حين خَلَوا بأنفسهم فتفاوَضُوا وتحاوَرُوا وأفضى بعضهم بذات نفسه إلى بعض- وإن كان منه من كلام المؤمنين، أو ممن قاله ثم آمن، فإنه لا يصحُّ الاحتجاجُ به في حكم الجَدَلَ، من حيث يصير كأنَّك تحتجُّ على الخَصْم برأيٍ تراه أنت، وبقول أنت تقوله، وذلك أنه إنما يمتنع أن يدلَّ إذَا صَدَر القولُ مَصْدَر الدعوى والشيء يَدْفَعه[1] الخصم ويُنْكره، فأمّا ما كان مَخْرَجه مَخْرَج التنبيه على أمرٍ يَعْرفُه ذوو الخِبْرة، وأطلقهُ قائلُه إطلاق الواثق بأنه مَعْلُومٌ للجميع، وأنَّه ليس من بصير يعرف مقادير الفضل والنَّقْص إلا وهو يُحْوَج إلى تسليمه والاعتراف به شاءَ أم أبَى[2] - فهو دليلٌ بكل حال، ومن قول كلٍّ قائل، وحُجَّة من غير مَثْنَويَّة[3] ، ومن غير أن يُنْظَر إلى قائله أَمُوافقٌ أم مخالفٌ، ذاك لأن الدِّلالة ليست من نَفْس القول وذات الصفة، بل في مَصْدَرهما، وفي أنْ أُخْرِجَا مُخْرَجَ الإخْبَارِ عن أمْرٍ هو كالشيءِ البادي للعيون، لا يُعْمِل أحَدٌ بَصَرَهُ إلا رآه.

١٢- وإذا رأينا «الأحوال» و«الأقوال» منهم قد شهدت، كالذي بَان باستسلامهم للعَجْز وعِلْمِهم بالعظيم من الفَضْلِ والبَائن[4] من المزيَّة، الذي إذا قيس إلى ما يستطيعونه ويَقْدرون عليه في ضُروبِ النَّظم وأنواع التصرُّف، فاتَهُ الفَوْت الذي لا يُنَال[5] ، وارتقَى إلى حيث لا تطمعُ إليه الآمال، فقد وَجب القطعُ بأنَّه مُعجزٌ.

ذلك لأنه ليس إلا أحدُ الأمرين: فإمّا أن يكونوا قد علموا المزيَّةَ التي ذكرنَا أنهم علموها على الصِّحَّة- وإما أن يكونوا قد تَوهَّمُوهَا في نظم القرآن، وليست هي فيه لغَلَط دخل عليهم. ودعوى الثَّاني من الأمرين سُخْف[6] ؛ فإن ذلك لو ظُنَّ بالواحد منهم لبَعُدَ، ذلك لأنه لا يُتَصَوَّر أن يَتَوَهَّم العاقل في نَظْمِ كلام، جُلُّ مُناه[7] ومَتَى

---

(١) يدفعه الخصم: يرده .
(٢) أبى: رفض.
(٣) من غير مثنوية: من غير استثناء.
(٤) البائن عن المزية: الخارج عن الفضل.
(٥) فاته الفوت: فاته الأمر العظيم .
(٦) سخف: هزيل وباطل.
(٧) جل مناه: معظم أمنياته .

١١- وما روي عن الوليد بن المغيرة وأبي ذر والوليد بن عقبة وغيرهم ممن وصفوا القرآن بالحلاوة والطلاوة، لا يقال: لا يصح الاحتجاج به؛ لأنك تحتج على الخصم برأي تراه أنت، وبقول تقول أنت؛ إذ يمتنع الاحتجاج إذا ادعيت شيئًا والخصم ينكره. أما إذا كان الإعجاب من شخص مجرّب له خبرة، ويقول قولاً يعلمه الجميع ولا ينكرونه، سواء وافق رغبتهم أم خالفها، فلاشك أن ذلك يكون حجة على الجميع دون استثناء؛ لأنه خبر ظاهر للعيان، ولا يُعمل أحد بصره إلا رآه.

١٢- وإذا رأينا أحوالهم وأقوالهم تشهد بعجزهم، وأن نظم القرآن يرتقي إلى مكانة لا تبلغها الآمال، فقد تأكد لهم أن القرآن معجز، إذ لا يخلو من أحد أمرين:

إما أنهم علموا المزية في القرآن على الحقيقة، وإما أنهم توهموا المزية في نظم القرآن وليست هي فيه على الحقيقة .

والأمر الثاني باطل؛ إذ لا يتصور أنهم يستطيعون معارضة القرآن، ويقدرون على إفحام الخصم، ثم يقولون: إن ما في القرآن من مزية وفضل يرجع إلى الوهم والخطأ، وإذا صدر هذا القول من أحدهم فكيف يشملهم جميعًا، وكيف يكون الأمر كذلك وهم أرباب فصاحة يميزون الكلام الحسن من الرديء، ويعرفون القائل إذا تليت عليهم قصيدة شعر دون أن يذكر اسم القائل، ويعرفون الغرض من القصيدة إذا كان فيها بيت من الشعر يطلب فيها الشاعر المنح والعطاء، وذلك لشدة تمرسهم بقرض الشعر، فكيف يصح الغلط أو التوهم منهم؟ وإذن فقد زالت الشبهة واتضح إعجاز القرآن لهم .

✿✿✿

أصحابه أن يستطيعَ معارضتهَ، وأن يقدر على إسكات خَصْمه المُباهي[(١)] به، أنَّه قد بلغ في المَزيَّة هذا المبلغ العظيم غلطًا وسهواً، فكيف بأن يَشْمَلِ هذا الغلط كُلَّهم، ويدخل على كافَّتهم؟ وأيِّ عقل يرضى من صاحبه بأَنْ يتوهَّم عليهم مثل هذا الغلط، وهم مَنْ إذَا ذَاقَ الكَلام عرف قائله من قبل أن يُذْكر، ويسمعُ أحدُهم البيتَ قد استَرْفَدَهُ الشاعرُ[(٢)] فأدخله في أثناء شعر لـه، فيعرف موضعه وينَبِّهُ عليه، كما قال الفرزدق لذي الرُّمَّة: أهذا شعرك؟ هذَا شعر لاكَهُ أشَدُّ لحَيَيْنِ منك[(٣)] إلى ضُروب من دقيق المعرفة يقلُّ هذا في جَنْبِهَا؟ وإذا لم يَصَحَّ الغَلَط عليهم، ولم يَجُزْ أنْ يُدَّعَى أنَّهُ كان معهم في زمانهم من كان بالأمر أعلم، وبالذي وقع التحدِّي إليه أقومَ، فقد زالت الشبهة في كونه معجزاً له .

❁❁❁

١٣- وإن قالوا: فإنّ هَهُنَا أمرًا آخرَ، وهو ما عَلِمْنَا من تقديمهم شعراءَ الجاهليَّة على أنفسهم، وإقْرَارهم لهم بالفضل، وإجماعهم في امرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى أنهم أَشْعَرُ العرب، وإذا كان ذلك كَذَلِكَ، فمن أين لنا أن نعلم أنَّهُم لم يكونوا بحيثُ لو تُحُدُّوا إلى معارضة القُرآن لَقَامُوا بها واستطاعوها؟

قيل لهم: هذا الفضل على ما فيه لا يَقْدَح في موضع الحُجَّة، وذلك أنهم كانوا كما يَخفَى، يَرْوُون أشعار الجاهليين وخُطَبَهم، ويَعْرِفون مقاديرَهُم في الفصاحة معرفةَ من لا تُشْكِلُ[(٤)] جهات الفَضْل عليه، فلو كانوا يرون فيما رووا وحفظوا مزيَّةً على القرآن أو رأوه قريبًا منه، أو بحيثُ يجوز أن يُعارَض بمثله، أو يَقَعَ لهم إذا قاسوا أو وازنوا أنَّ هذا الذي تُحُدُّوا إلى معارضته لو تُحُدِّيَ إليه مَنْ قبلهم لاستطاعوا أن يأتُوا بمثله، لكانوا يَدَّعُون ذلك ويذكُرونَه، ولو ذكروه لذُكِرَ عنهم، ومُحَالٌ- إذا رَجَعنا إلى أنفسنا واستشْفَفْنا[(٥)] حالَ الناس فيما جُبلوا عليه[(٦)] - أن

---

(١) المباهي به: المفاخر . (٢) استرفده: طلب رفده وعطاءه .

(٣) لاك الشيء: مضغه، واللحيان: العظمان اللذان فيهما الأسنان، والمعنى : قاله من هو أفخم منك شعراً .

(٤) لا يشكل: لا يغيب ولا يختلط بغيره .

(٥) استشفقنا حال الناس: تأملنا أحوالهم. (٦) جبلوا عليه: اعتادوا عليه وأنسوا به .

١٣- وثمة اعتراض آخر: فقد علمنا أنهم يجلّون شعراء الجاهلية، ويضعونهم موضع القمة في الشعر، وخاصة أصحاب المعلقات كامرئ القيس وزهير والنابغة والأعشى من الذين كتبت قصائدهم بماء الذهب وعلقت على أستار الكعبة. فمن أين لنا أن نعرف إذا تحدوا إلى معارضة القرآن لقاموا بها وأمكنهم الإتيان بمثل نظمه؟

قيل لهم: هذه حجة لنا وليست حجة لكم، فأنتم تروون الشعر وتعرفون قدر الشاعر، فلو وجدتم في الشعر مزية تفضل القرآن، أو توازيه، أو تكون قريبة منه لذكرتم ذلك ، ولو ذكرتموه لذُكر عنكم، ولما قرّعكم أحد بالعجز عن الإتيان بمثل القرآن شبهًا أو نظمًا، وإذا كان شعر الفحول مثل القرآن الذي تدعيه، لما جاز لنا أن نلوذ بالصمت، ونسلم بإعجاز القرآن.

ومعلوم أنهم لم يقولوا: إن أشعارهم وأشعار الأقدمين منهم لها مزية مثل مزية القرآن.

وقد ثبت أنهم لم يقولوا ذلك، وإنما كانوا بين أمرين:

إما أن يسلموا بالعجز والقصور، وإلا قبل لهم بالإتيان بمثل القرآن فصاحة ونظمًا حين يخلوا بعضهم إلى بعض.

❁❁❁

يكونوا قد عَرَفُوا لَمَا تُحدُّوا إليه وقُرِّعُوا[(١)] بالعجز عنه شبْهًا ونَظْمًا، ثم يُتْلَى عليهم: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا[(٢)]﴾ [الإسراء:٨٨]، فلا يزيدون في جوابه على الصمت، ولا يقولون: «لقد روينا لمن تَقَدَّم ما علمتَ أنه لا يَقْصُرُ[(٣)] عما أتيتَ به، فمن أين استجزْتَ أن تَدَّعِي هَذه الدَّعْوَى»؟.

فإذا كان من المعلوم ضرورة أنَّهم لم يقولوا ذلك، ولا رأوا أن يَقُولوه، ولو على سبيل الدَّفع والتلبيس والتَّشَغُّب بالباطل[(٤)]، بل كانوا بين أمرين: إمَّا أن يُخْبِروا عن أنفسهم بالعجز والقُصور، وذلك حين يخلو بعضهم ببعض، وكان الحالُ حالَ تَصَادُق[(٥)] - وإمَّا أن يَتَعَلَّقُوا بما لا يتعلَّق به إلا من أعوزته[(٦)] الحيلة، ومَنْ فُلَّ[(٧)] بالحجَّة، من نسبته إلى السحر تارةً، وإلى أنه مأخوذٌ من فُلان وفُلان أُخْرَى، يُسَمُّون أقوامًا مَجْهولين لا يُعْرَفون بعلم، ولا يُظَنُّ بهم أن عندهم علمًا ليس عند غيرهم- ثَبَت أنهم قد كانوا عَلموا أنَّ صُورَةَ أُولئك الأوائل صُورتُهم، وأنَّ التقدير فيهم أنهم لو كانوا في زَمَانَ النبيِّ ﷺ، ثمّ تُحُدُّوا إلى معارضته، لكانوا في مثل حال هؤلاء الكائنين في زمانه حالُهُمْ، وإذا كان هذا هكذا، فقد انتفى الشَّكُّ، وحصل اليقينُ الذي تسكُنُ معه النفس، ويطمئنُّ عنده القلب، أنه مُعْجز ناقضٌ للعادة، وأنَّهُ في معنى قَلْبِ العَصَا حَيَّةً، وإحياء الموتى، في ظهور الحُجَّة به على الخَلْق كافَّةً، وبَانَ أنْ قد سُعِد المؤمنون وخَسِرَ المُبْطِلُون. والحَمْدُ لله ربِّ العالمين على أنْ هَدَانَا لدينه، وأنا قلوبنا بُبرهَانه ودليله، وإياهَ جَلَّ وعَزَّ نَسأَل التَّثْبِيت عَلَى مَا هَدَى له، وإتْمامَ النِّعْمَة بإدامة ما خَوَّله[(٨)] بفضْله ومَنِّه.

❁❁❁

---

(١) قرعوا: وبخوا.
(٢) ظهيراً: معينًا.
(٣) لا يقصر: لا يقل.
(٤) الدفع: الرد، التلبيس: التخليط، والتشاغب: تصنع الشغب.
(٥) تصادق: تصاف.
(٦) أعوزته الحيلة: افتقدها.
(٧) فلّ بالحجة: هزم وانكسر.
(٨) إدامة ما خوّله: أن يدوم ما منحه بفضله وعطائه.

وإمـا أن ينسبـوه إلى السحـر تارة، وأنه من أسـاطير الأولين تارة أخـرى إذا أعوزتهم الحيل وانقطعت الحجة.

وثبت لديهم أن صورة البلغاء من الأوائل لا تختلف عن صورتهم، وأنهم لو كانوا في زمن النبي ﷺ وتحـداهم بالقرآن لكان حال الأولين مـثل أحوالهم في زمن الرسول ﷺ.

وإذا كان الأمر كذلك فـقد انتفى كل شك بأن القرآن غير معـجز وغير ناقض للعادة، وهو معـجزة مثل قلب العصا حـية، وإحياء الموتى في ظهور حـجته على الخلق جميعًا.

✿✿✿

فصلٌ (في شبهة)

١٤- واعلم أنَّ ههُنا بابًا من التلبيس[١] أَنْتَ تَجدُه يدورُ في أَنْفُسِ قومٍ من الأشـقياء، وتراهم يُومئون إليه، ويَهْمسون به، وَيَسْتَهْوُون الغرّ[٢] الغَبِيّ بذكره، وهو قولُهم:

«قد جرت العادة بأَنْ يَبْـقَى في الزَّمَان مَنْ يَفُوتُ[٣] أَهْلَه حتى يُسَلِّمُوا له، وحتى لا يَطْمَعَ أحد في مُدَانَاتِه[٤]، وحتَّى لَيَقَعَ الإجـماع منهم أَنَّهُ الفَرْدُ الذي لا يُنَازَع[٥]، ثم يذكرون أمرأَ القيس والشعراءَ الذين قُـدِّموا على من كان معهم في أعصارهم[٦]، وربما ذكروا الجَـاحظَ وكلَّ مَذْكُور بأنَّه كـان أفضلَ من كان في عـصره، ولهم في هذا الباب خَـبْطٌ وتخليطٌ لا إلى غاية، وهي نَفْـثَةٌ[٧] نَفَثَـها الشيطانُ فيـهم، وإنَّمَا أُتُوا من سوء تَدَبُّرهم لما يسمـعون، وتسرُّعهم إلى الاعتراض قـبل تَمَام العلم بالدليل، وذلك أنَّ الشَرْط في المزيَّة الناقـضة للعادة، أن يَبْلُغَ الأمـرُ فيها إلى حَـيْثُ يَبْهَر وَيَقْهَـرُ، حتى تنقطع الأطماعُ عن المعـارضة، وتَخْرَس الأَلْسُنُ عن دَعْوَى المداناة، وحـتى لا تُحَدِّثَ نَفْسٌ صَاحِبَهَا بأَنْ يَتَصَدَّى، ولا يَجُول في خَلَد[٨] أنَّ الإتيانَ بمثله يُمْكِن، وحتى يكون يَأْسُهُم وإحسَاسُهُم بالعجز عنه في بعضه، مثلَ ذلك في كُلِّه.

❁❁❁

١٥- وليت شعْري[٩]، مَنْ هَذَا الذي سَلَّم لهم أنَّهُ كان في وقت من الأوقات من بَلَغَ أَمْره في المَزِيَّة وَفي العُلُوِّ على أهلِ زَمَانه هذا المَبْلَـغ، وانتهى إلى هَذَا الحَدِّ؟ إن قيل: «امرُؤُ القَيْس»، فَـقد كان في وقته من يُـبَارِيه وَيُمَاتِنُه[١٠]، بل لا يَتَحَاشَى من أن يَدَّعَى الفَضْلَ عليه فقـد عرفنا حديث «عَلْقَمة الفَحْل»، وأنه لما قال امـرؤ القيس، وقد تناشدا: «أَيُّنَا أشعـر؟» قال: «أنا» غَيْـرَ مُكْتَرِث ولا مُبال، حـتى قال امرؤ القـيس: «فَقُلْ وَانْعَتْ فَرَسَكَ وَنَاقَتَكَ، وأَقُول وأَنْعَتُ فرسي وناقتي»، فـقال علقمة: «إني فاعل، والحَكَمُ بَيْني وَبَيْنكَ المرأةُ من ورائك»، يعني أَمَّ جُنْدُب امرأة امرئ القيس، فقال امرؤ القيس:

---

(١) بابًا من التلبيس: من الخلط. (٢) الغرّ: الساذج الجاهل. (٣) يفوت الناس: يسبقهم.
(٤) مداناته: القرب منه. (٥) لا ينازع: لا يقاوم. (٦) أعصارهم: عصورهم.
(٧) نفثة: نفخة، هبة. (٨) لا يجول في خلد: لا يخطر بذهن.
(٩) ليت شعري: ليت علمي. (١٠) يماتنه: يصلب أمامه ويشتد معه.

فصلٌ

١٤- وهناك أمر آخر يحاولون الخلط فيه، يستهوون به الجاهل الغافل، وهو قولهم:

إن كل عصر فيه أفذاذ سبقوا الناس ولم يدانيهم أحد، مثل امرئ القيس شاعر الجاهلية، والجاحظ أمير البيان، وأسرعوا يعترضون بهذه الدعوى، وهي دعوى فاسدة؛ لأن من شرط الأمر الذي يخالف العادة أن تنقطع الأطماع دون معارضته، ولا يمكن أن يتصدى له أو يأتي بمثله، فيكون الإحساس بالعجز، واليأس من القرب منه شامل لجميعه كما هو شامل لبعضه.

❁❁❁

١٥- ثم إن هذه قضية لا نسلم بها، فقد كان في زمن امرئ القيس من يباريه ويتغلب عليه، ويدعي الفضل دونه، وحديثه مع علقمة الفحل الشاعر مدوّن في كتب الأدب، فقد تباريا في الإنشاد، ووصف كل منهما فرسه وناقته، واحتكما لامرأة تسمى أم جندب، امرأة امرئ القيس، ففضلت علقمة على زوجها امرئ القيس.

❁❁❁

خَلِيلَيَّ مُرَّا بِي عَلَى أُمِّ جُنْدَبِ   نُقَضِّ لُبَانَاتِ الفُؤادِ المُعَذَّبِ[١]

وقال علقمة:

ذَهَبْتَ مِنَ الهِجْرَانِ في كُلِّ مَذْهَبِ   وَلَمْ يَكُ حَقًّا كُلُّ هَذَا التَّجَنُّبِ

وتحاكما إلى المرأة، فَفَضَّلت عَلْقَمةَ[٢] .

❁❁❁

١٦- وَجَرَى بين امرئ القيس والحارث اليَشْكُرِيّ في تَتْميمه أنصافَ الأبيات التي أوَّلها:

أَحَارِ أُرِيكَ بَرْقًا هَبَّ وهنًا   كَنَارِ مَجُوسَ تَسْتَعِرُ اسْتِعَارَا[٣]

ما هو مشهور، حتى قال امرؤ القيس: لا أُمانتك بعد هذا[٤] .

❁❁❁

(الأخبار الدالة على اختلاف الناس في أي الشعراء أشعر)

١٧- ثم وجدنَا الأَخْبار تدُلُّ على خلاف لم يَزَلْ بين الناس فيه وفي غيره، أيٌّ أَشعر؟ وعلى أيٍّ لم يَسْتَقِرَّ الأَمْرُ في تقديمه قَرَارًا يرفعُ الشَّكّ. رووا أنّ أمير المؤمنين عليًا، رضوان الله عليه، كان يُفَطِّر النَّاسَ في شهر رمضانَ، فإذا فَرِغَ من العَشَاء تَكَلَّم فأَقَلَّ، وأوجَزَ فَأَبْلَغَ. قال: فاختصم النَّاسُ لَيلةً في أشعر الناس، حتى ارتفعت أصواتهم، فقال رضوان الله عليه لأبي الأسود الدؤلي[٥] : قل يَا أبا الأسود، وكان يتعصَّب لأبي دؤاد، فقال أشعرهم الذي يقول:

وَلَقَدْ أَغْتَدِي يُدَافِعُ رُكْنِي   أَحْوَذِيٌّ ذُو مَيْعَةٍ إِضْرِيجُ

مِخْلَطٌ مِزْيَلٌ مِكَرٌّ مِفَرٌّ   مِنْفَحٌ مِطْرَحٌ سَبُوحٌ خَرُوجُ

سَلْهَبٌ شَرْجَبٌ كَأَنَّ رِمَاحًا   حَمَلَتْهُ، وَفِي السَّرَاةِ دُمُوجُ[٦]

---

(١) لبانات الفؤاد: أهواء النفس.
(٢) تحاكما إلى المرأة: جعلاها حكمًا وقاضيًا.
(٣) تستعر: تتقد.
(٤) لا أماتنك بعد هذا: لا أعارضك.
(٥) هو أبو الأسود الدؤلي البصري، أول من أسس علم النحو، ونقط المصحف، توفي سنة ٦٩هـ بطاعون الجارف في خلافة ابن الزبير.
(٦) الأحوذي: السريع الجري، ذو ميعة: ذو نشاط، إضريج: يتفصد عرقًا، وهي صفة مدح، مزيل: خفيف الحركة، منفح: جسور، مطرح: بعيد الخطو، سبوح: يمد يديه في الجري، خروج: طويل العنق، سلهب: طويل، شرجب: طويل القوائم، وفي السراة دموج: في الظهر إحكام.

١٦- وجرى بين امرئ القيس والحارث اليشكري أمر مثل هذا، حتى قال امرؤ القيس: لا أباريك ولا أعارضك بعد هذا.

❁❁❁

١٧- ومازال الخلاف واقعًا بين الناس، فلم يجمعوا على سبق واحد من الشعراء على غيره.

تروى الأخبار: أن علياً بن أبي طالب ﷺ اختصم الناس في مجلسه: أيّ أشعر الشعراء، حتى ارتفعت أصواتهم، وكان عليّ يفضل أبا دؤاد ولكنه قال: كل شعرائكم محسن، وإن يكن أحدهم أفضل من غيره، فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة: امرؤ القيس فقد كان أصحهم قولاً، وأجودهم طُرفة.

❁❁❁

فأقبل أمير المؤمنين - رضوان الله عليه - على الناس فقال: كلٌ شعرائكم مُحْسنٌ، ولو جَمَعهم زمانٌ واحدٌ وغايةٌ ومذهبٌ واحد في القول، لَعَلمْنَا أَيُّهم أَسْبَقُ إلى ذلك، وكلُّهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه، وإن يكن أحدهُم أفضلَ، فالذي لم يَقُلْ رَغْبَةً ولا رَهْبَةً: امْرُؤُ القَيْس بن حجر، كان أصَحَّهم بَادرَة، وأجودهم نادرة[1] .

❁❁❁

١٨- وعن ابن عباس أنه سَأَلَ الحُطَيئة: مَنْ أَشْعَر النَّاس؟ قال: أَمِنَ الماضين أم من الباقين؟ فقال: إذَنْ من الماضين، فهو الذي يقول:

وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِه يَفِرْهُ[2] ، وَمَنْ لا يَتّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

وما الذي يقول:

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخًا لا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ[3] ، أيُّ الرِّجَالِ المُهَذَّبُ

- بدون ذلك، ولكنَّ الضراعة[4] أفسدته كما أَفْسَدَتْ جَرْولاً - يعني نفسه- والله يابن عباس لولا الجَشَع والطَّمَع لكنتُ أشعر الماضين، فأما الباقون فلا أشك أنّي أَشْعَرُهم .

❁❁❁

١٩- وقالوا: كان الأوائل لا يفضِّلون على زُهَيْر أحدًا في الشِّعْر ويقولون: «قد ظلمه حقَّه من جعله كالنابغة»، قالوا: «وعامة أهل الحجاز على ذلك». وعن ابن عباس أنَّه قال: سامرتُ[5] عمرَ بن الخطاب - رضوان الله عليه - ذات ليلة، فقال أنْشدْني لشاعر الشُّعراء، فقلت: وَمَنْ شَاعر الشُّعْراء؟ قال: زُهَيْر، قلت: ياأمير المؤمنين، ولمَ كَان شَاعر الشُّعراء؟ قال: لأنَه لا يَتَتَبَّع وَحْشِيّ[6] الكلام في شعره، ولا يُعاظِل[7] بين القول.

---

(١) أضحّهم بادرة: أبعدهم عن الخطأ، وأجودهم نادرة: أحسنهم طُرفة .

(٢) يفره: يحفظه من العيب.

(٣) لا تلمه على شعث: تقبله على عيبه .

(٤) الضراعة: الخنوع.

(٥) سامرته: حادثته ليلاً.

(٦) وحشيّ الكلام: غريبه .

(٧) يعاظل: تركيب الكلام بعضه على بعض مما يؤدي إلى صعوبة فهمه .

١٨- وسأل العباس رضي الله عنه الحطيئة الشاعر: من أشعر الناس؟

قال: زهير، ومثله النابغة لولا أنه يتضرع ويتذلل، مما أفسده كما أفسدني، ولولا الطمع لكنت أشعر الماضين، أما المحدثون فأنا أشعرهم لاشك في ذلك.

❁❁❁

١٩- وكان الأوائل منذ فجر الإسلام لا يفضلون أحدًا على زهير، وأهل الحجاز يرونه أفضل من غيره من الشعراء، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يعدّه شاعر الشعراء؛ لأنه لا يتتبع غريب الكلام، ولا يدخل الألفاظ بعضها في بعض فيسلم شعره إلى التعقيد.

❁❁❁

٢٠- ورُوِيَ عن أبي عبيدةَ أنَّهُ قال: أشعرُ النَّاس ثلاثةٌ: امرؤ القيس بن حجر، وزهير بن أبي سُلْمَى، والنَّابغة الذبياني، ثم اخْتَلَفُوا فيهم: فزوَّرَت اليمانية تقديمًا لصاحبهم أخبارًا رَفَعُوهَا إلى رسول الله ﷺ. ورُوِي عن يحيى بن سُليمان الكاتب أنَّهُ قال: بَعَثَني المنصور إلى حَمّاد الراوية أسأله عن أَشْعَر النَّاس، فأتيتُه وقلت: إنَّ أَمير المؤمنين يسألك عن أشْعَرِ النَّاسِ، فقال: ذاك الأعْشَى صنَّاجُهَا[1].

٢١- فقد علمنا أن امرأ القيس كان أَشْعَرهم عندهم، وأنَّ تفضيلهم غيره عليه إنَّمَا كان عَلَى سَبيل المبالغة، وعلى جهة الاستحسان للشَّيء يُتَمَثَّل به في الوقت ويَقَعُ في النَّفْس، ومَا أشْبَهَ ذلك من الأسباب التي يُعْطَى بهَا الشَّاعر أكثر مما يستحق، أليس فيه أنَّه مما لا يَبْعُدُ في القياس، وأنَّهُ ممَّا يَتَّسع له الاحتمالَ، وأنَّه ليس بالقول الذي يُعاب، والحكم الذي يُزْرِي[2] بصاحبه، وأن فضله عليهم لم يكن بالفضل الذي يمنع أن يكونوا أكْفَاءَ[3] له ونظراءَ يَسُوغ للواحد منهم، ويَسُوغُ هو لنفسه، دَعْوى مساواته والتَّصَدِّي لمباراته؟

هذا، وفي حاجة المنصور إلى أن يَسأل عن أشعر الشعراء، وقَدْ مَضى الدَّهْرُ بعد الدَّهْرِ، دليلٌ على أنْ لم يكن الذي رُوِي من تَفْضيله قولاً مُجْمَعًا عليه من أصله وفي أوَّلِ ما قيلَ، وأنه كان كالرأي يراه قومٌ وينكره آخرون، وأن الصُّورة كانت كالصورةِ مع جرير والفرزدق، وأبي تَمَّام والبحتريّ. ذاك لأنه لو كان القولُ بأنَّهُ أشعرُ الناسَ قولاً صَدَرَ مَصْدَرَ الإجماع في أوَّله، وحكمًا أطْبَقَ[4] عليه الكَافَّة حين حُكِمَ به، حتى لم يُوجَدْ مخالف، ثم استمرَّ كذلك إلى زمان المنصور، لكان يكون مُحالاً أن يَخْفَى عليه حتى يحتاجَ فيه إلى سؤال حَمَّاد- وكان يكون كذلك بعيدًا من حَمَّاد أن يبعثَ إليه مثلُ المنصور، في هَيْبته وسلطانه ودقَّة نظره وشدّة مُؤاخذته، يسألُه فيجازفُ له في الجواب، ويقول قولاً لم يَقُلْهُ أَحد، ثُمَّ يُطْلقه إطلاقَ الشيءِ الموثُوق بصحَّته، المتقدِّم في شُهْرَته، فتدبرَ ذلك.

---

(١) صناجة العرب: لما في شعره من طرب وموسيقى.
(٢) يزري بصاحبه: يدني بمنزلته.
(٣) كفء: مماثل ونظير
(٤) أطبق عليه الكافة: أجمعوا عليه جميعًا.

٢٠- ويروى عن أبي عبيدة- من أشهر اللغويين وصاحب مجاز القرآن- أن أشعر الشعراء ثلاثة: امرؤ القيس، وزهير بن أبي سلمى، والنابغة الذبياني.

وروي أيضًا عن حماد الراوية حين سأله الخليفة المنصور عن أشعر الناس، قال: الأعشى صنَّاجة العرب.

فلم يتفقوا على من أشعر الناس، وإنما اختلفوا في ذلك اختلافًا بينًا .

❁❁❁

٢١- فإذا كان امرؤ القيس أشعر الشعراء، وكان غيره أفضل منه على سبيل الاستحسان والمبالغة مما لا يعيب امرأ القيس، وإذا كان بعضهم يفضل امرأ القيس، فلا يمنع أن يكون له أكفاء ونظراء يسوغ لهم دعوى مساواته، والتصدي لمباراته.

وقد مضت الأزمان ولم يكن أحد من الشعراء مجمعًا على تفضيله، وإنما هو رأي يراه قوم وينكره آخرون، كما كان الخلاف حول جرير والفرزدق، وأبي تمام والبحتري. ولو كان ثمة إجماع على شاعر بأنه أفضل الشعراء، واستمر ذلك إلى زمن المنصور لما كانت به حاجة إلى السؤال عن أشعر الشعراء، وأن يجازف حماد الراوية بالجواب بأنه الأعشى، فيقول قولاً لم يقل به أحد.

❁❁❁

(بيان في تقديم الشعراء وتفضيلهم من أي وجه يكون)

٢٢- ويزيد الأمر بيانًا أنَّا رأيناهم حين طَبَّقُوا[1] الشعراءَ جعلوا امرأ القيس وزهيراً والنابغة والأعشى في طبقة، فأعلموا بذلك أنَّهم أكفاءٌ ونُظَراء، وأنَّ فضلاً إن كان لواحد منهم، فليس بالذي يُوئس الباقين من مُدَاناته[2] ، ومن أن يستطيعوا التعلُّق به والجَرْيَ في مَيْدَانه، ويمنعهم أن يدَّعوا لأنفسهم أَو يُدَّعَى لهم أنهم سَاوَوْهُ في كثيرٍ مما قالوه أو دَنَوْا مِنَه، وأنَّهم جرَوْا إلى غايته أو كادوا، وإذَا كان هذا صُورة الأمر، كان من العَمَى التعلُّقُ به، ومن الخَسَار الوقُوعُ في الشُّبْهَة بسببه .

❁❁❁

٢٣- وطريقةٌ أُخْرَى في ذلك، وتقريرٌ له على ترتيب آخر، وهو أنَّ الفَضْلَ يَجبُ والتقديمَ؛ إمَّا لمعنى غريب يَسْبَق إليه الشَّاعر فيستخرجه، أو استعارة بعيدة يَفْطُنُ لَهَا، أَوْ لطريقة فـي النَّظْم يخترعـهَا، ومَـعْلُومٌ أَنَّ المُعَوَّل[3] في دليل الإعجاز على النظم، ومعلـوم كذلك أنْ لَيس الدليلُ في المجيء بنَظْم لم يوجد من قبلٍ فَـقَطْ، بل في ذلك مضمومًا إلى أن يَبين[4] ذلك «النظم» من سائر ما عُرف ويُعْرَف من ضروب «النظم»، وما يَعْرِفَ أهلُ العصر من أنفسهم أنهم يستطيعونه، البَيْنُونَة[5] التي لا يَعْرِض معها شكٌّ لواحد منهم أنه لا يستطيعه، ولا يهتدي لكُنْه[6] أمْره، حتى يكونوا في استشعار اليأس من أن يقدروا على مثله، وما يَجْري مَجْرَى المثْل لَه، على صُورة واحدة، وحتَّى كأن قلوبهم في ذلك قد أُفْرغَت فِي قَالب واحد[7] . وإذا كان الأمرَ كذلك لم يَصِحّ لهم تَعَلُّقٌ بشأن امرئ القيس حتى يَدَّعواْ أنه سبق إلى نَظْمٍ بان من كُلّ نَظْمٍ عرِفَ لِمَن قبله ولمن كان معه في زمانه، البَيْنُونَة التي ذكرناها أمرها.

وهم إذَا فعلَوا ذلك، ورّطوا أنفسهم في أعظم ما يكون من الجَهالة، من حيث إنه يُفْضي[8] بهم إلى أن يدَّعوا على من كان في زمان النبي ﷺ من الشُّعراء والبلغاء قاطبةً الجهل بمقادير البلاغة، والنُّقْصانَ في علمها، ولأنفسهم الزيادة عليهم، وأن يكونوا قد استدركوا في نظم امرئ القيس مزيَّةً لم تعلمها قريشٌ والعربُ قاطبةً،

---

(١) طبقوا الشعراء: جعلوهم طبقات .
(٢) يوئس الباقين من مداناته، ييأسون من القرب منه وملاحقته .
(٣) المعول: المرجع والأصل .
(٤) يبين: يتميز .
(٥) بينونة نظم القرآن: فضله وتمييزه عن نظمهم .
(٦) لا يهتدي لكنه أمره: حقيقة شأنه .
(٧) أفرغت في قالب واحد: صار رأيهم واحدًا لا اختلاف بينهم .
(٨) يفضي بهم: يذهب بهم .

٢٢- ويزيد الأمر وضوحًا وبيانًا أنهم حين جعلوا امرأ القيس وزهيراً والنابغة والأعشى في طبقة واحدة، أنهم كانوا أكفاء متماثلين، وإذا كان لأحدهم فضل على الآخرين، لما دعاهم ذلك إلى اليأس من القرب منه والتعلق به حتى يبذّوه أو يساووه أو يدنوا منه.

❁❁❁

٢٣- وطريقة أخرى لبيان أن القرآن معجز، وأنهم لم يقدروا على معارضته.

فإثبات الفضل يكون إما لاختيار معنى غريب أو استعارة بعيدة، أو نظم دقيق، وإن كان معلومًا أن سبب الإعجاز هو النظم، وليس المراد الإتيان بنظم لم يوجد من قبل، بل أن يتميز النظم عن سائر ما عرف عند أهل العصر، ولا يستطيعون أن يأتوا بمثل هذا النظم.

وإذا كان الأمر كذلك فليس لهم في تقديم امرئ القيس شأن حتى يدعوا أنه سبق إلى نظم تميز عن نظم غيره ممن سبقه أو عاصره .

وإذا فعلوا ذلك فقد ورّطوا أنفسهم وحكموا عليها بالجهالة، فكيف يكون بين أيديهم شعر منظوم مساوٍ في شرفه لنظم القرآن، ثم لا يحتجّون به على النبي ﷺ الذي أتى بقرآن خارج عن طوق البشر في نظمه وتجاوز قدرتهم.

ومن يسلم بأن شعر امرئ القيس زاد في شرف نظمه على نظم من كان قبله، كما زاد القرآن في فضل نظمه على نظم من كان في عصر النبي ﷺ .

❁❁❁

ذلك لما مَضَى آنفًا[١] من أنَّ مُحالاً أن يكون معهم وبين أيديهم نَظْمٌ يعرفون من حاله أنه مُسَاوٍ في الشرف نَظْمَ القرآن، ثم لا يَذْكُرونه ولا يحتجُّون به على النبي ﷺ، وهو يُخبرهم أنَّ الذي أَتَى به خارج عن طَوْق[٢] البشر ويَتَجَاوَزُ قُوَاهُمْ.

هذَا، ومَنْ يُسَلِّم بأنَّ امرأ القيس زاد في البلاغة وشَرَف النَّظْمِ[٣] على نَظْمِ من كان قبله، مَا إذا اعْتُبِرَ كان في مَزِيَّة قَدْر القرآن على نَظْمِ مَنْ كان في عصر النبي ﷺ؟ أَمْ منْ أينَ لهم هَذه الدعوى؟ أَلشيء علموه هم في شعره، بان لهم عند قياسه إلى شعرِ من كان قَبْله كأبي دُؤَاد والأفوه الأوديّ وغيرهما؟ أم لِخَبَر أتَاهم؟ فَلْيُرونَا مكانه، وليس لهم إلى ذلك سبيل[٤] بَلْ قَد أتى الخبرُ بما يُجَهِّلهم في هذه الدعوى ويُكَذِّبهم، وهو الذي تقدَّم من قول أبي الأسود وتفضيله أبا دُؤَاد بحضرة أمير المؤمنين عليّ رضوان الله عليه، وبعد أن قال له: «قل يا أبَا الأسود»، أفيكونُ أن يكونُوا قد عَرَفُوا لامرئ القيس المزيَّةَ التي ذكروها، وكان فَضْلُه على من تقدَّمه الفضلَ الذي قالوه، ثم يقول أمير المؤمنين لأبي الأسود: «قل» بحَضْرة العرب وبعَقب أن تشاجروا في أَشْعَر النَّاسِ، فيؤخِّره ويقدِّم أبَا دؤاد، ثم لا يَسْمَعُ نكيراً[٥]، كالذي يجب فيمن قال الشيء الظاهر بُطْلانُه، وذَهب مَذْهَبًا لا مَسَاغ[٦] له! وليست تُذْكَرُ أمثالُ هذه الزيادة، ويُتكَلَّف الجوابُ عنها، أنَّهَا تأخُذ موضعًا من قَلْب ذي لُبٍّ[٧]، ولكن الاحتياط بذكْرِ ما يُتَوَهَّم أنْ يَسْتَرِوحِ إليه الغَوِيُّ[٨]، ويُغالَطَ به الجَاهِل.

وإذا كانت الشُّبْهَة في أَصْلِ الدين، كانت كالداء الذي يُخْشَى منه على الرُّوح، ويُخاف منه على النَّفْسِ، فلا يُسْتَقَلُّ قَليلُه، ولا يُتَهاون باليسير منه، ولا يُتَوَهَّمُ مكانُ حرَكَة له إلا اسْتُقْصِي[٩] النَّظَرُ فيه، وأُعيد الكَيُّ[١٠] على نواحيه، وكالحيوان ذي السَّمِّ يُعاد الحَجَرُ على رأسه، مادام يُرَى به حسٌّ وإن قَلَّ.

والله وَلِيُّ العِصْمَة، والمسئولُ أنْ يَجْعَلَ كُلَّ ما نعيد ونبدئ فيه لوَجْهه، بفَضْله ومَنِّه.

---

(١) مضى آنفًا: سابقًا .
(٢) طوق البشر: قدرتهم .
(٣) النظم: ترتيب الكلام بعضه مع بعض بطريقة مخصوصة .
(٤) سبيل: وجهة وطريق .
(٥) نكيراً: دهشة وإنكاراً .
(٦) لا مساغ له: لا يجوز له .
(٧) ذي لب: ذي عقل .
(٨) يستروح إليه الغوى: يرضى عنه الممعن في الضلال .
(٩) استقصى النظر فيه: نظر إليه من كل ناحية.
(١٠) الكيّ: علاج ودواء لكل علة .

من أين هذه الدعوى وما مصدرها؟ أفي شعره مـا يميزه عمن سبقه كأبي دؤاد والأفوه الأودي وغيرهمـا؟ وإذا كان خبر أتاهم فليرونا مكانه وموضـعه؛ بل الخبر جاء بما يكذبهم، حين سـأل أميرُ المؤمنين عليٌّ أبا الأسـود بحضرة العـرب بعد أن ارتفعت أصواتهم ومشاجراتهم في بيان مَن أشعر الناس، فيقدم أبا دؤاد على غيره من الشـعراء، ثم لا يـسمع نكيـرًا من أحـد، وهم أدرى الناس بمضـايق الشعـر ونظمه.

وإذا كان شبهتهم في القرآن هي شبهة في أصل الدين، كان ذلك كالداء الذي يخشى مـنه على روح الإنسان، ومن ثم لا يجـوز التهاون في أمـرها وإن قلّت، كالأفعى تضرب على رأسها مادام فيها حس أو حركة.

❁❁❁

(الشرط في المعجزة أن تعمَّ الأزمان كلها)

٢٤- فاعلم أنَّهم إذا ذكروا - في تعلُّقهم بالتَّوابع، ومحاولتهم أن يَمْنَعُوا من الاستدلال، مع تسليم عجز العرب عن معارضة القرآن- مَنْ تَرَاخَى[١] زَمَانُه عن زَمان النبيِّ ﷺ، كالجاحظ وأشباهه، كانوا في ذلك أجهلَ، وكان النَّقْضُ عليهم أسهلَ، وذلك أنَّ الشَّرْطَ في نَقْضِ العادة أن يَعُمَّ الأزمانَ كلَّهَا، وأنْ يَظْهر على مُدَّعي النُّبوة ما لم يستطعه مَمْلُوكٌ قَطُّ.

وأمَّا تَقَدُّمُ واحد من أهل العصر سائرَهم، ففي معنى تقدُّم واحد من أهل مصر من الأمصار غَيْرَهُ ممَّن يَضُمُّه وإياه ذلك المصْرُ، لا فضلَ في ذلك بين الأمصار والأعصار[٢] إذا حَقَّقْتَ[٣] النَّظَر، إذ ليس بأكثر من أنَّ واحدًا زاد على جماعة معدودين في نوع من الأنواع، فكان أعلَمَهم أَوْ أَكْتَبَهم أَوْ أَشْعَرَهُم، أو أَحْذَقَهم في صنعة، وأَبْهَرَهم في عَمَلٍ من الأعْمَال. وليس ذلك من الإعجاز في شيء، إنَّمَا المُعْجِزُ ما عُلِمَ أنَّهُ فوق قُوَى البشر وقُدَرِهم، إن كان من جنْس ما يَقَع التفاضُل فيه من جهة القَدَر[٤]، أو فوق عُلُومهم، إن كان من قبيل ما يَتَفَاضَلُ النَّاسُ فيه بالعلْم والفَهْمِ، وإذَا كُنَّا نعلم أن استمداد الجاحظ وأشباه الجاحظ من كلام العرب والبُلغَاء الذين تقدَّمُوا في الأزمنة، وأنهم فَجَّرُوا لهم ينابيع القولَ فاسْتَقَوْا، ومَثَّلُوا لهم مُثُلاً في البلاغة فاحْتَذَوْا[٥]، إذَنْ لم يَبْلُغْ شأْوٌ ما بلغ[٦]، ولم يَدُرَّ لهم من ضُروع القول ما دَرَّ، لو أن طَبَاعًا لم تَشْرَبْ من مائهم، ولم تُغْذَ بجَنَاهم[٧]، ولم يكن حالُهم في الاكتساب منهم، والاستمداد من ثمار قرائحهم[٨]، وتَشَمُّم الذي فاح من روائحهم، حال النحل التي تَغْتَذي بأريجَ الأنوار[٩]، وطيِّب الأزهار، وتملأُ أجوافَها من تلك اللطائف ثم تَمُجُّهَا أريًا وتقذفها مَاذيًا[١٠]، إذن لكان الجاحظُ

---

(١) تراخى زمانه عن زمان النبي ﷺ: أي جاء بعده بفترة طويلة.
(٢) الأمصار والأعصار: الأمكنة والأزمنة. (٣) حققت النظر: أمعنت النظر.
(٤) جهة القدر: جمع قدرة وهي القوة. (٥) فاحتذوا: احتذى الشيء: سار على مثاله.
(٦) شأوه: مداه. (٧) تغذ بجناهم: تأكل ثمارهم. (٨) قرائحهم: عقولهم.
(٩) أنوارهم: جمع نَور، أي ما خرج من نور الشجرة.
(١٠) الأرى: العسل، والماذي: أنقى أنواعه.

٢٤- وإذا تعلق زعمهم بمن جاء بعد زمان الرسول ﷺ كالجاحظ وأضرابه، كانوا في ذلك أجهل، ونقض زعمهم أسهل؛ لأن شرط نقض العادة أن تعمّ الأزمان كلها، وأن يظهر على يد المدعي ما لم يستطع أحد أن يظهره على يديه هو.

وإذا تقدم واحد كالجاحظ على أهل عصره، فلا فضل في ذلك إذا أمعنت النظر؛ إذ ليس الأمر بأكثر من أن واحدًا زاد في جماعة معدودة، فكان أشهرهم أو أحذقهم في صنعة، وليس ذلك من الإعجاز في شيء؛ إذ إن الإعجاز هو ما يفوق قدرة البشر.

أما الجاحظ وغيره فقد شربوا من ماء غيرهم من السابقين، واستقوا معلوماتهم من الأولين، وبلغوا ما بلغوا من حفظ كلام الأولين، ولولا ذلك لكانوا في عداد العامة، فحاله كحال النحل تغتذي بطيب الأزهار، ثم تقذفها عسلاً جنيًا حلو المذاق.

❁❁❁

وغيرُ الجاحظ في عداد عامَّة زمانهم الذين لم يَرْوُوا، ولم يَحْفَظُوا، ولم يتتبعوا كلامَ الأوَّلين، من لَدُنْ[١] ظَهَرَ الشِّعْر وكان الخطابة إلى وقتهم الذي هم فيه، ولم يعرفُوا إلا ما يَتَكَلَّم به آباؤهم وإخوانُهم ومُساكنوهم في الدار والمَحلَّة[٢]، أو كانوا لا يزيدون عليهم إن زادوا إلا بمقدار معلوم، فمن أعظم الجهل وأشدِّ الغباوة، أن يُجْعَل تَقدُّمُ أحدِهم لأهل زمانه من باب نَقْضِ العادة، وأنْ يُعَدَّ مَعَدَّ المُعْجِز[٣].

❁❁❁

٢٥- فَمَثَلُ هذه الطبقة إذَنْ مَع الصَّدْر الأوَّل، وقياس هؤلاء الخَلَف مع أُولئك السَّلَف، ما جرى بين ابن ميَّادة وعقَّال، قال ابن ميادة:

فَجَّرْنَا يَنَابِيعَ الكَلامِ وبَحْرَهُ ... فأصْبَحَ فيه ذُو الرِّوَايَة يَسْبَحُ
وَما الشِّعْرُ إلا شِعْرُ قَيْسٍ وَخِنْدفٍ ... وَقَولُ سِوَاهُمْ كُلْفَةٌ وَتَمَلُّحُ[٤]

فقال عقالٌ يجيبه:

ألا أَبْلِغ الرَّمَّاح نَقْضَ مَقَالَة ... بهَا خَطِلَ الرَّمَّاحُ أَوْ كَانَ يَمْزَحُ
لَقَدْ خَرَقَ الحَيُّ اليَمَانُون قَبْلَهُمْ ... بُحُورَ الكَلام تُسْتَقَى وَهْيَ طُفَّحُ
وَقَد علَّمُوا مَنْ بَعْدَهُم فَتَعَلَّمُوا ... وَهُمْ أَعْرَبُوا هَذَا الكَلامَ وَأَوْضَحُوا
فللسَّابقِين الفَضْلُ لا تُنْكِرُونَهُ ... وَلَيْسَ لِمَخْلُوقٍ عَلَيْهِم تَبَجُّحُ[٥]

❁❁❁

٢٦- وفي الذين قَدَّمْتُ في أوَّل الجُزْء مُفْتَتَحَ هَذه الرِّسَالة من قَوْل خَالد بن صَفْوان: «كَيف نُجَاريهم، وإنَّمَا نَحكِيهم»[٦]، وما أتْبَعْتُه من قول الجاحظ في شأن العرب، وفي أنَّ الاقتداءَ بهم والأخذَ منهم والتسليم لهم، وأنَّهم لا يستطيع أشعر الناس وأرفعهم في البيان أن يُضاهيهم[٧]، ويقول مِثْلَ الذي قَالُوه في جودة

(١) من لدن ظهر الشعر: من أول ما ظهر.
(٢) المحلة: المكان، ومنزل القوم.
(٣) يعدّ معد المعجز: يجري مجرى الإعجاز.
(٤) كلفة وتملح: تكلف وتظرف.
(٥) خطل: فساد، طفح: طافحة، تبجح: تهجم.
(٦) كيف نجاريهم ونحن نحكيهم: أي كيف نوازيهم ونحن نتبعهم.
(٧) يضاهيهم: يماثلهم.

٢٥- ومثل ذلك مثل ما جرى بين ابن ميّادة وبين عقال من شعر: يقول ابن ميادة: إن شعراءنا فجّروا ينابيع الكلام، وأصحاب الرواية سبحوا في نهرهم وينابيعهم، وشعرهم كُلْفة وتملّح.

فيجيبه عقال: بأنَّ الفضل يرجع للسابقين ولا ينكره أحد، وليس لمخلوق أن يتبجح عليهم.

❁❁❁

٢٦- يقول أصحاب البلاغة المشتغلون بها كيف نجاري الأقدمين، ونحن عالة عليهم نحكي أقوالهم ونسير على منوالهم.

والجاحظ يقول في شأن العرب، ليس لنا إلا أن نتبعهم ونأخذ منهم، ولا يستطيع أرفع الناس بيانًا أن يماثلهم، ويقول مثل أقوالهم في أصالة نحْتهم وجودة سبكهم.

فإذا تغافل الرجل وادعى للجاحظ وأمثاله دعوى لم يذكرها الجاحظ لنفسه، أو زعم أنهم ظلموا أنفسهم وهضموا أعمالهم تعصبًا للعرب، فأعطوهم أكثر مما ينبغي ووصفوهم بوصف هو أرفع من مكانتهم، لفتحوا بذلك بابًا من الجهالة والسخف ليس لنا أن نشغل أنفسنا به فضلاً عن الكلام عليه.

❁❁❁

السَّبك والنَّحْت، وكثرة الماء والرَّوْنَق[١] ، إلا في اليَسير غنًى للعاقل وكفاية، اللَّهُم إلا أن يَتجَاهلَ مُتجَاهلٌ فيدَّعي في الجاحظ وأمثاله فَضْلاً لم يَدَّعُوه لأنفسهم، أو يَزْعُم أنَّهم ضَامُوا أنفسهم[٢] تَعصُّبًا للعرب، فتَشاهَدُوا لَهَا بأكثر ممَّا عَرفُوا، وتواصفوها بمَزيَّة وبما لم يعلموا، فيَفتَح بذلك بابًا من الرَّكَاكَة[٣] والسُّخْف لا يُجَاب عن مثله، ولا يُشتَغلُ بالإصْغَاءِ إليه، فَضْلاً عَنِ الكلامِ عليه.

❁❁❁

(قول الملحدة إن من البلغاء من يقدر على معارضة القرآن وتركوا ذلك خوفًا)

٢٧- واعلم أنّه إنْ خُيِّل إلى قوم من جُهَّال المُلحدَة[٤] أنَّهُ كَانَ في المتأخِّرين من البلغاء كالجاحظ وأشْبَاه الجاحظ، مَنْ استطاع مُعارضَةَ القرآن فَتَركَ خَوْفًا، أو أنَّهُم فَعلُوا ذَلكَ ثُمَّ أَخْفَوْه، لم يُتصَوَّرْ تخيُّلهم ذلك حتى يَقْتَحمُوا[٥] ، هَذه الجَهَالة التي ذكرتُهَا، أعني أنْ يزعموا أنَّهُم كَانُوا عنْد أنفسهم أفْصحَ وأَبلغَ منْ بُلَغَاء قُرَيْش وخطبائهم، وأنَّ خَطيبَهم كان أخطبَ من قُسٍّ وسَحْبَان، وشاعرَهم أشعرَ من امرئ القيس، ومن كُلِّ شاعر كان في العرب، إلا أنَّهُم صَانَعُوا النَّاس[٦] ، فَمَنَعُوا أنفسهم الفضيلةَ ونَحلُوها[٧] العربَ، وذاكَ أنَّ مُحالاً أن يعتقدُوا فيهم، أَعْني في العرب، ما اعتقده النَّاسُ، وفي أنفسهم ما أَفْصَحُوا به من القُصور[٨] عن مُدَانَاتهم، وشدَّة الانحطاط عنهم، ثُمَّ أن يستطيعوا ما لم يَسْتَطعْه العرب، ويَكْمُلوا مَا لَمْ يَكْمُلوا له.

ومَنْ هَذَا الذي يَشُكُّ في بُطْلان دَعْوَى مَن بَلَغَ بالمصلِّي غايةً، وقَدْ انْقَطع السَّابق[٩] ، وزَعَم في النَّاقصِ الحذْق[١٠] أنه استَقلَّ بشَيء عَيَّ به[١١] المشهودُ له بالحذْق والتقدُّم؟ هذا ما لا يدور في خَلَد[١٢] ، ولا تنعقد له صُورَة في وَهْم، فاعرف ذلك.

---

(١) السبك والنحت والرونق، كلها أوصاف للكلام المتلائم الجيد . (٢) ضاموا أنفسهم: هضموها .
(٣) الركاكة: التهافت والسقوط .
(٤) الملحدة: الذين خرجوا عن الدين .
(٥) اقتحم الشيء: دخله عنوة .
(٦) صانعوا الناس: مالئوهم وجاملوهم .
(٧) نحلوها العرب: خصوا بها العرب .
(٨) القصور عن الشيء: عدم الوصول إليه .
(٩) السابق: المتقدم .
(١٠) الحذق: المهارة .
(١١) عيّ بالشيء: ضعف عنه ولم يحتمله .
(١٢) يدور في خلده: يجري في ذهنه .

٢٧- وإذا خيل لبعض الجهال أنه كان من المتأخرين كالجاحظ وأضرابه من استطاعوا معارضة القرآن لروعة بيانهم، إلا أنهم تركوا ذلك خوفًا، أو عارضوه ثم أخفوه، وكأنهم يزعمون أنه كان بينهم من الناس من هو أفصح وأبلغ من خطباء العرب وشعرائهم المبرزين كامرئ القيس، وقسّ بن ساعدة، وسحبان وائل، إلا أنهم تظاهروا بغير ذلك ومنعوا أنفسهم فضيلة التقدم ومنحوها للعرب.

فمن المحال أن يخصوا بالمزيّة ويمنعوا أنفسهم عنها لقصورهم، ثم يزعمون أنهم يستطيعون ما لم يستطعه العرب، ويكملوا ما نقص منهم، كفرسين في حلبة السباق أحدهما سابق، والآخر لاحق، فهل يجوز لنا أن نزعم أن للاحق الأقل كفاءة ميزة وحذقًا لا يوجدان في السابق؟!

❁❁❁

فصلٌ في فنٍّ آخر من السؤال

٢٨- وهو أن يقولوا: إنَّا قَدْ علمنا من عادات الناس وطَبَائعهم أنّ الواحدَ منهم تُوَاتيه[1] العبارةُ، ويُطيعه اللَّفْظُ في صِنْفٍ من المعاني، ثُمَّ يمتنع عليه مِثْلُ تلك العبارة وذاك اللفظ في صِنْف آخر.

فقد يكون الرجل، كما لَا يَخْفَى، في المديح أشعرَ منه في المراثي، وفي الغَزَل واللَّهْو والصيد أَنْفَذَ منه في الحكَم والآداب، وتراه يَسْتطيع في الأوصاف والتشبيهات ما لا يستطيع مثلَه في سائر[2] المعاني، وترى الكاتبَ وهو في الإخوانيات أبلغ منه في السلطانيات، وبالعكس. هذا أَمرٌ معروف ظاهر لا يَشْتَبه[3] . وإذا كان كذلك، فلعلَّ العَجْزَ الذي ظَهَر فيهم عن مُعارضة القرآن، لم يظهر لأنَّهم لا يستطيعون مِثْل ذلك النَّظْم، ولكن لأنهم لا يستطيعُونَه فِي مِثْل مَعَاني القرآن.

واعلم أن هذا السؤالَ يَجيء لهم على وجه آخرَ، وفي صورة أُخرى، وأنا أستقصيه[4] ، حتَّى إذا وَقَعَ الجوابُ عَنْهُ وقع عن جُمْلَته، وكان الحَسْمُ[5] في الداء كله، وذاك أن يقولوا: إنَّه لا تَصحّ المطالبة إلا بما يُتَصوَّر وجوده، وما يَدْخُل في حيِّز[6] الممكن، وإنَّا لنعلم من حَال المعاني أنَّ الشَّاعرَ يَسْبِقُ في الكثير منها إلى عبارة يُعْلَمُ ضرورةً أَنَّهَا لا يَجيء في ذلك المعنى إلاَّ مَا هُوَ دُونَهَا ومُنْحَطٌّ عَنْهَا، حتى يُقْضَى لَهُ بأنَّهُ قَدْ غَلَبَ عليه واستَبَدَّ به، كمَا قَضَى الجاحظَ لبَشَّار في قَوْله:

كَأَنَّ مُثَارَ النقْع فَوْقَ رؤُوسنا ... وَأَسْيَافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَواكبُهُ[7]

فإنَّه أَنشد هذا البيت مع نظائره[8] ، ثم قال: «وهذا المعنى قد غلب عليه بَشَّارٌ، كما غلب عنترة على قوله:

(١) تواتيه العبارة: تكون في متناول يديه .
(٢) سائر المعاني: بقية المعاني.
(٣) لا يشتبه: لا يغمض ولا يخفى على أحد .
(٤) أستقصيه: أحيط به علمًا .
(٥) الحسم: القطع .
(٦) في حيّز الممكن: في نطاقه .
(٧) مثار النقع: الغبار الذي تثيره سنابك الخيل في المعركة، تهاوى: تساقط .
(٨) نظائره: أمثاله .

٢٨- يقولون: إن من عادة الناس أن الواحد منهم تواتيه العبارة وتسلس له في فن، فإذا دخل في فن آخر استعصت عليه وحرنت معه، فقد يكون متفوقًا في الغزل، فإذا دخل في المراثي لم يبلغ فيه المقدار الذي بلغه في الغزل. وقد يكون سبّاقًا في الفخر، وهو أشعر منه في المراثي وهكذا.

وكذلك الأمر في الكتابة لا تختلف عن الشعر، فقد يكون في الاجتماعيات أفضل منه في الرسميات إلى غير ذلك، فإذا ظهر منهم عجز عن معارضة القرآن، فليس لأنهم لا يستطيعون مثل ذلك النظم؛ بل لأنهم لا يستطيعونه في مثل معاني القرآن.

أو يقولون: إنه لا يصح المطالبة إلا بما يدخل في حيّز الممكن، فإذا سبق شاعر إلى معنى من المعاني وارتفع فيه، بحيث لا يمكن لشاعر آخر الوصول إلى معناه، فيقضي للأول بأنه غلب على هذا المعنى واستبدّ به، كبيت بشار مثلاً:

كَأَنَّ مُثَارَ النقْع فَوْقَ رؤوسِنا ... وأسْيافَنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَواكِبُهُ

فهذا المعنى غلب عليه بشار واحتكره لنفسه حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يقترب منه.

وَخَلاَ الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ   غَرِداً كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ
هَزِجًا يَحُكُّ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ   قَدْحَ المُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ(١)

قالَ: فَلَو أنَّ امرأ القيس عَرَضَ لِمَذْهَب عَنترة في هذا لافْتَضَح».

وليس ذاك لأن بَشَّاراً وَعَنْتَرة قَدْ أُوتيا في علم النَّظْم جملةً ما لم يُؤْتَ غَيْرُهما، ولكن لأنه إذا كان في مكان خَبِيءٌ فَعَثَر عليه إنْسَانٌ وأخذه، لم يَبْقَ لغيره مَرام(٢) في ذلك المكان، وإذا لم يَكُنْ في الصَّدَفَة إلاَّ جَوْهَرَةٌ واحدة، فَعَمَدَ إليها عَامدٌ فَشَقَّهَا عَنْهَا، استحال أن يَسْتَام(٣) هو أو غَيْرُهُ إخراجَ جَوْهَرة أُخْرَى مِنْ تِلْكَ الصَّدَفَة. وما هَذا سبيلَه في الشِّعْرِ كَثيرٌ لا يَخْفَى على مَنْ مَارسَ هَذَا الشَّأن، فَمِن البَيِّن في ذلك القَطَامي:

فَهُنَّ يَنْبِذْنَ مِنْ قَوْلٍ يُصِبْنَ بِهِ   مَوَاقِعَ المَاءِ مِنْ ذِي الغُلَّة الصَّادِي(٤)

وقول ابن حازم:

كَفَاكَ بِالشَّيْبِ ذَنْبًا عِنْد غَانِيةٍ   وَبِالشَّبَاب شَفِيعًا أَيُّهَا الرَّجُلُ

وقول عبد الرحمن بن حسان:

لَمْ تَفُتْهَا شَمْسُ النَّهَارِ بِشَيْءٍ   غَيْرَ أنَّ الشَّبَابَ لَيْس يَدُومُ

وقول البحتري:

عَرِيقُونَ فِي الإِفْضَال يُؤْتَنَفُ النَّدَى   لِنَاشِئِهِم مِنْ حَيْثُ يُؤْتَنَفُ العُمْرُ(٥)

لا ينظر في هذا وأشباهه عارفٌ إلا علم أنه لا يُوجد في المعنى الذي يُرَى مثله، وأن الأمر قد بَلَغَ غايته، وإنْ لم يَبْقَ للطَّالب مَطْلبٌ.

❁❁❁

(١) برح المكان: غادره، المترنم: الذي يتغنى بصوته، هزجًا: طربًا، المكبّ: المنحني على الزناد، الأجذم: المقطوع.
(٢) مرام: قصد وهدف.   (٣) يستام: يطلب.   (٤) الغلة: العطش الشديد.
(٥) لهم جذور في الفضل وقد عرفوا بالكرم منذ استقبلوا الحياة.

وقالوا ذلك أيضًا في بيتي عنترة وهو يصف الذباب: «لو أن امرأ القيس عرض لمذهب عنترة في هذا لافتضح» ليس ذلك لأن بشارًا وعنترة قد أوتيا في علم النظم ما لم يؤت غيرهما، بل هما كشيء خفي في مكان فعثر عليه إنسان فأخذه، وشبه ذلك بالصدفة التي ليس بها إلا جوهرة واحدة، فعمد إليها رجل وأخذها، استحال على رجل آخر أن يأخذ منها جوهرة ثانية، إذ لا يوجد سوى واحدة التي أخذها الأول، ثم أصبحت الصدفة فارغة، وهذا شأن الشعر الذي لا يخفى على أحد.

ويذكر عبد القاهر دليلاً على قوله وصوابه أبياتًا من الشعر للقطامي، وابن حازم الباهلي، وعبد الرحمن بن حسان، والبحتري، ويعقب على ذلك فيقول: إن معاني هذه الأبيات لا يوجد مثلها في شعر الشعراء؛ لأن الأمر فيها قد بلغ غايته ولم يبق لطالب مطلب فوق ذلك أو مداناته .

***

(ما جاء على هذا الوجه من الكلام المنثور)

٢٩- وكذلك السبيلَ في المنثور من الكلام، فإنك تجد فيه مَتَى شئتَ فصولاً تعلَمُ أن لن يُسْتَطَاعَ في معانيها مثْلُهَا، فمما لا يخفى أنَّهُ كذلك قول أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه: «قيمةُ كُلِّ امرِئٍ مَا يُحْسِنُه»، وقول الحسن رحمة الله عليه:

«مَا رَأَيْتُ يَقينًا لاشكَّ فيه أشْبَهَ بشَكٍّ لا يقين فيه من الموت»، ولن تَعْدَم ذلك إذا تَأَمَّلْت كلامَ البُلغاء ونظرت في الرسائل.

وَمِنْ أخص شيء بأنْ يُطْلَب ذلك فيه، الكتبُ المبتدأةُ الموضوعةُ في العلوم المستخرَجة، فإنّا نجد أربابَها[1] قَد سَبَقُوا في فُصُول منها إلى ضرب من اللَّفْظ والنَّظْم، أعْيَا[2] مَن بَعْدَهم أنْ يَطْلبُوا مثله، أو يجيئوا بشبيه له، فجعلوا لا يزيدون على أن يَحْفَظُوا تلك الفصول على وجوهها، ويُؤَدُّوا ألفاظَهم فيها على نِظامها وكما هي.

وذلك ما كان مثل قول سيبويه في أول الكتاب[3] :

«وأما الفعْل فأمْثلةٌ أُخذَت منْ لَفْظ أَحْدَاث الأسماء، وبُنيتْ لما مضى، وما يكون ولم يَقَعْ، وما هوَ كَائِنٌ لَم يَنْقَطِع».

- لا نعلم أحدًا أتَى في معنى هذا الكلام بما يُوازنه، أو يُدانيه، أو يقع قريبًا منه، ولا يَقَع في الوَهْم أيضًا أنَّ ذَلكَ يُسْتَطَاع، أفَلا تَرَى أنَّه إنَّمَا جَاءَ في مَعْنَاهُ قولهم:

«والفعل يَنْقَسمُ بأَقْسَامِ الزَّمَان: ماض وحاضرٌ ومستقبلٌ»، وليس يَخْفَى ضَعْفُ هَذَا في جَنْبه وقُصُوره عنه، ومثله قولَه:

«كأنَّهم يُقَدِّمُون الذي بَيَانُهُ أهمُّ لَهم، وهُمْ بِشَأْنه أَعْنَى، وإنْ كَانَا جَميعًا يُهِمَّانهم ويَعْنِيَانهم».

❁❁❁

---

(١) أربابها: أصحابها.

(٢) أعيا من بعدهم: أجهدهم.

(٣) الكتاب: كتاب سيبويه بهذا الاسم.

٢٩- وما يجري في الشعر من قول لا يدانيه في معناه شاعر آخر، يجري مثله في النثر، كقول عليّ ﷺ: «قيمة كل امرئ ما يحسنه»، وغير ذلك من النثر الذي تفرد بمعناه وامتاز على غيره .

وأيضًا العلوم المبتدأة المتسنبطة بقريحة الذهن ولم يسبق في استخراجها أحد، حتى إنها أعيت من حاول أن يجيء بمثلها في دقة التعبير عنها، كقول سيبويه في تقسيم الفعل إلى ما مضى، وما يكون، وما لم يقع، وما هو كائن، وكقوله في التقديم:

كأنهم يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم بشأنه أعْنَى، وإن كانا جميعًا يهمّانهم ويَعنيانهم.

❁❁❁

٣٠- وإذا كان الأمـرُ كذلك لم يمتنع أنْ يكون سـبيلُ لفظ القـرآن ونَظْمه هذا السبيل، وأنْ يـكون عَجْزَهم عن أن يأتوا في طريق العَجْـز عمَّا ذكرنا ومثَّلنا، فهذا جُمْلَةُ ما يجيء لهم في هذا الضرب من التعلُّق قد استوفيتُه، وإذ قد عرفتَه، فاسمع الجواب عنه، فإنَّه يُسْقطه عَنْكَ دَفْعَةً، ويَحْسمه عَنْك حَسْمًا[1] .

❁❁❁

(تفصيل القول في معنى التحدي)

٣١- واعلم أنهم في هذا كـرَام قد أَضَلَّ الهـدَفَ، وبَان قَد زَالَ عن القـاعدة، وذَاكَ أَنَّهُ سؤال لا يَتَّجه حتَّى يُقَدَّر أنَّ التَّحَـدي كان إلى أَنْ يُعبِّرُوا عَنْ مَعَاني القرآن أنفُسـها وبأَعْـيَانهـا بلَفْظ يُشْـبه لَفْظَه، ونَظْم يوازي نَظْمَـه، وهَذَا تقدير بَاطِـلٌ، فإنَّ التَحَـدي كان إلى أنَ يجيئـوا في أيِّ مَعْنَى شَاءُوا من المعانـي بنَظْم يَبْلُغ نَظْم القُرآن في الشَّرَف أو يَقْـرُب مِنْه، يدلُّ علَى ذلك قولـه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣] ، أي مثله في النظم، وليكن المعنـى مُفْتَرًى كمـا قُلْتُم، فلا إلى المعنى دُعِيتُمْ، ولكن إلى النَّظْم، وإذا كان كذلك، كان بيِّنًا أنَّه بناءٌ على غير أساس، ورَمْيٌ منَ غَـيْر مَـرْمًى؛ لأنَّهُ قيـاس ما امـتنعت فيـه المعارضـةُ من جهـة وفي شيء مخصوص، على ما امتنعت معارَضَتَهُ من الجهات كلِّهَا وفي الأشياء أجْمعها.

فلو كان إذ سَبَقَ الخلـيلُ وسيبويه في معـاني النَّحو إلى ما سَبَقَـا إليه من اللَّفْظ والنَّظْم، لم يسـبق الجـاحظُ في مـعانيـه التي وضع كُـتُـبه لهـا إلى مـا يُوازي ذلكَ ويُضاهيه، أو كان بَشَّـارٌ إذ سبق في معناه إلى ما سبق إليه، لم يُوجد مـثْل نظمه فيه شاعر في شيء من المعاني- لكان له في ذلك متعلَّقٌ، فأما ولَيْسَ من نَظْم يقال: «إنه لـم يسبق إليـه» في معنى، إلا ويُوجَـد أمثالُه أو خـيرٌ منه في مـعانٍ أُخَر، فَـمَنْ أشدّ المُحَال وأبْيَنه الاعتراضُ به.

واعْلم أنَّا لَو سَلَّمْنَا لَهُم الَّذي ظَنُّوهُ عَلَى بُطْلانه، منْ أَنْ التَّحَـدي كَان إلَى أَنْ يُعَبَّر عن أَنْفُس مَعَاني القُـرآن بمَا يُشْبه لَفْظه ونَظْمه، لَم نَعْدَم الحجَـاجَ مَعَهم، وأَنْ يَكُون لَنَا عَلَيْهم كَلَامٌ في الذي تَعَلَّقُـوا بِه، ودَفْعُ لهم عنه، إلاّ أن العلَماء آثَروا أَنْ يكونَ الجوابُ

---

(١) يحسمه حسمًا [illegible] الكلا[illegible] نهائيًا

٣٠- وإذا كان الأمر كذلك في الشعر وفي النثر كان مثله في القرآن، فعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله، كعجزهم عن أبيات معروفة في الشعر كالتي مثلنا بها لبشار وغيره، وفي النثر كما مثلنا بقول عليّ رضي الله عنه وغيره.

وإذ قد عرفت ما قالوه في هذا الزعم، وأدركت الجواب عنه الذي يُسقط ادعاءهم ويُفحم زعمهم.

❁❁❁

٣١- قدّر المعارضون أن التحدي كان بأن يعبروا عن معاني القرآن بأعيانها، وبلفظ يشبه لفظه، وهذا باطل؛ لأن التحدي لم يكن في الإتيان بمعنى في مثل معنى القرآن، ولكن كان بالإتيان بنظم مثل نظمه، في أيٍّ معنى شاءوا. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ أي مفترى في أي معنى تريدون، فكان شأنهم شأن من يرمي بسهم فيضلّ الهدف، أو يبني على غير أساس، وقاسوا الشيء الذي يمتنع بنظمه، على الشيء الذي يمتنع بمعناه، فكان قياسهم على بطلان وفساد.

وإذا حكمنا للخليل وسيبويه في معاني النحو بالسبق في لفظه ونظمه، حكمنا حينئذ بأن الجاحظ لم يسبق في معانيه إلى ما يضاهي ما جاء به الخليل وسيبويه.

وكذلك إذا كان بشار قد أتى في بيته المشهور عن المعركة بالمعنى الذي لم يسبق إليه، وكان غيره من الشعراء لا يدانوه في شيء من معناه، لكان لهم العذر في ذلك، أما وأن الأمر لا يتعلق بالمعنى، وإنما يتعلق بالنظم وأنه لم يسبق إليه في معنى، إلا ويوجد مثل نظمه أو خير منه، في معناه أو في معان أخر، فهذا من أشد المحال وأبعده عن الاعتراض.

ولو سلمنا جدلاً أن التحدي وقع في معاني القرآن بما يشبهه في اللفظ والنظم، لما عدمنا الحجة عليهم، ولكن العلماء فضلوا أن يكون التحدي على الوجه الذي ذكرنا بأن يأتوا بأي معنى، ولكن في نظم القرآن تسهيلاً عليهم، حتى نحسم الشبهة ونقطع الحجة، فمن ضعف الرأي أن يطول علاج المريض ومعك الدواء الذي يشفيه.

من الوجه الذي ذَكَرتُ، إذ كان وَفْقَ ما نُصَّ عليه في التنزيل، وكانَ فيه سدُّ الباب وحَسْمُ الشُّبَه جُمْلَةً، ومنْ ضَعْف الرَّأي أنْ تَسْلُكَ طَرِيقًا يَغْمُضُ، وَقَدْ وَجَدت السَّنَن اللاحب[1] ، وَأَنْ تُطَاولَ المريضَ فِي علاجك، ومعكَ الدواءُ الذي يَشْفِي مِنْ كَثَب[2] ، وأنْ تُرْخِيَ من خِنَاق[3] الخَصْم، وفي قُدْرتك ألاَّ يملك نَفَسًا، ولا يستطيع نُطْقًا.

❁❁❁

٣٢- ثُمَّ إنْ أردت أن تكلِّمهم على تسليم ذلك، فالطريق فيه أن يُقال لهم على أوَّل كلامهم حيث قالوا: «إنَّا رَأينا الرجلَ يكونُ فِي نوعٍ أشعرَ، وعلى جَوْدَة اللفظ والنظم أقدرَ منه في غيره»- إنَّه ينبغي أن تعلموا أوَّلَ شيء أنَّكم حرَّفْتم كلام النَّاس في هذا عن موضعه، فإنَّا إذا تأَمَّلنا الحالَ في تقديمهم الشَّاعرَ في فَنٍّ من الفنون، وجدناهم قد فَعَلُوا ذلك عَلَى مَعْنَى أنَّه قَدْ خَرَّجَ[4] في مَعَاني ذلك الفنِّ مَا لم يُخَرِّجْه غيره، واتَّسَعَ لِمَا لم يتسع له مَنْ سواه، فإذا قالوا: «هو أنسب الناس»، فالمعنى أنه قَدْ فَطَنَ فِي مَعَاني الغزل، ومَا يدلُّ عَلَى شدةَ الوَجْد[5] وَفَرْط الحب والهَيَمَان لِمَا لم يَفْطُن له غيره، وكذلك إذا قالوا: «أمدح، أو أَهْجَى»، فالمعنى أنَّه قد اهْتَدى في مَعَاني الزَّيْن والشَّين وفي التَّحْسين والتَّهْجين[6] إلى مَا لم يَهْتَد إليه نظراؤه[7] ، ولو كَانُوا في اللفظ والنَّظْم يذهبون، لكان محالاً أن يقولوا: «هو أنسب»؛ لأن ذلك في صفة اللفظ والنظم مُحالٌ، وَمَنْ ذَا الَّذي يَشُكّ أنْ لَمْ يَكُن قَوْلُ جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وَأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ[8]

أمدحَ بيت عند من قال ذلك، من أجْلِ لفظه ونظمه، وأنَّ ذلك كان من أجل معناه؟ هذا ما لا مَعْنَى لزيادة القول فيه.

❁❁❁

(١) السنن اللاحب: الطريق الواضح .
(٢) كثب: قرب .
(٣) خناق الخصم: العنان والحبل، أي ترخي له الأمر وتسهله عليه .
(٤) خرّج في معاني ذلك: أتى في معانيه.
(٥) الوجد: الحب والهيام .
(٦) التهجين: التقبيح .
(٧) نظراؤه: أمثاله .
(٨) المطايا: الإبل، راح: اليد يصفهم بالكرم الشديد.

٣٢- ونعود إلى ما قالوه مرة أخرى: إن الرجل قد يكون في نوع أشعر، وفي اللفظ والنظم أجود منه في نوع آخر.

وإذا تأملنا ذلك وجدنا أن الشاعر قد أتى في معاني ذلك الفن ما لم يأت به غيره، فإذا قالوا: فلان أنسب الناس أو أمدحهم أو أهجاهم، بمعنى أنه وجد في معاني الغزل من الوجد ما لم يجده غيره، واهتدى في معاني المدح والهجاء ما لم يهتد إليه نظراؤه. فهم يريدون المعنى ويستحيل أن يكون مرادهم النظم، إذ لو كان كذلك، أي أنه أنسب أو أمدح أو أهجى؛ لما كان من صفات اللفظ والنظم.

وقول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْر مَنْ رَكِبَ المَطَايَا وأَنْدَى العَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

لا يشك أحد بأنه أمدح بيت قالته العرب ليس لمعناه؛ بل لما فيه من جمال لفظ ونظم.

❁❁❁

٣٣- فإن قالوا: هُمْ، وإنْ كَانُوا قَدْ أَرَادُوا المعنى في قولهم: «هَذَا أَمْدَحُ، وذَاكَ أَهْجَى، وهَذَا أَنْسَبُ، وذَاكَ أَوْصَفُ» فإنَّه لَنْ تَتَّسِع المَعَانِي حَتَّى تَتَّسع الألفاظ، ولَنْ تَقَع مَوَاقعَها المؤثرة حتى يُحْسنُ النظم، وإذا كان كذلك، فموضعنا منه بحاله، ثُمَّ لَيْسَ بمُنْكَر ولا مَجْهُول أنْ يَكُون لفظُ الشَّاعِر ونظْمُه إذا تَعَاطَى المدحَ، أحسنَ وأفضلَ منهما إذَا هو هَجَاً أو نَسَب.

قيل: إنَّا نَدَع النِّزَاع في هَذَا ونسلِّمه لكم، فأخبرونا عن معاني القرآن، أهي صنْفٌ واحدٌ أم أصنافٌ؟ فإن قُلتم: «صنْف واحدٌ»، تجاهَلْتُم، فقد علمنا الحُجَج والبراهين، والحكَم والآداب، والترغيبَ والترهيبَ، والوعدَ والوعيدَ، والوصفَ والتشبيه والأمثالَ، وذكْر الأُمم والقرون واقتصاص[1] أحوالهم، والنَّبأَ[2] عمّا جرى بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام وما لا يُحْصَى ولا يُعَدّ.

وإنْ قلتم: «هي أصنافٌ»، كما لابُدَّ منه.

قيل لكم: فقد كان ينبغي لشعراء العرب وبُلغائها أن يَعْمدَ كلٌّ منهم إلى الصِّنْف الذي تنفُذُ قريحَتُه فيه فيعارضه، وأن يجعلوا الأمر في ذلك قسْمَةً بينهم[3]. وفي هذا كفاية لِمَنْ عَقَلَ.

❁❁❁

٣٤- وأمَّا قولهم: «إنَّهُ قَدْ يكون أن يَسْبقَ الشَّاعرُ في المَعْنَى إلى ضَرْب من اللَّفْظ والنَّظْم، يعلَم أنَّه لا يجيءُ في ذلك المعنى أبداً إلى ما هو مُنْحَطٌّ عنه»[4] - فإنَّهُ ينبغي أن يُقال لهم: قد سلَّمْنَا أنَّ الأمر كما قُلْتُم وعَلمْتُم، أفعلمتم شاعراً أو غير شاعر عَمَدَ إلى ما لا يُحْصَى كثرةً من المعاني، فتأتَّى له في جميعها لفظٌ أو نَظْمٌ أعيا[5] النَّاس أن يستطيعوا مثله، أو يَجدوه لمن تقدّمهم؟ أم ذلك شيء يتَّفق للشَّاعر، من كل مئة بيت يقولها، في بيت؟ ولعل غيرَ الشَّاعر على قياس[6] ذلك. وإذا كان لابُدَّ من الاعتراف بالثَّاني من الأمرين، وهو أن لا يكون إلا نادراً وفي القليل، فقد ثبت إعجازُ القرآن بنَفْس ما رامُوا به دَفْعه[7]، من حيثُ كان النظمُ الَّذي لا يُقْدَرُ على مثله قد جَاءَ منه فيما لا يُحْصَى كثرةً من المعاني.

---

(١) اقتصاص أحوالهم: تتبعها.
(٢) النبأ: الخبر إذا كان هامًا.
(٣) قسمة بينهم: يقتسمونه فيما بينهم.
(٤) منحط عنه: أقل منه.
(٥) أعيا الناس: أجهدهم.
(٦) قاس الشيء على غيره: قدره علي مثاله.
(٧) راموا دفعه: قصدوا تنقيصه.

٣٣- إن قالوا: هم وإن أرادوا المعنى في قولهم: «هذا أنسب أو أمدح وذاك أوصف أو أهجى» إلا أن المعاني لا تتكشّف إلا باللفظ، ولا تؤثِّر إلا بالنظم، فالأمر لا يخرج عما قلناه من أن يكون الإعجاز بالنظم واللفظ.

ومن المعلوم أن الشاعر قد يظهر فضله في نوع من الشعر دون نوع آخر، فقد يكون مبرزًا في الهجاء ساقطًا في المدح وهكذا، أو عاليًا في الغزل منحدرًا في الفخر.

قلنا: أخبرونا عن معاني القرآن أهي صنف واحد أم أصناف متعددة، إن كانت صنفًا واحدًا، كذبتم وتجاهلتم الواقع؛ فالقرآن أصناف كثيرة: فيه الحكمة والموعظة، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، والتشبيه والتمثيل، وغير ذلك مما يجده قارئ القرآن أو من يستمع إليه.

وإن كان القرآن أصنافًا متعددة، فلماذا لا تعمدون إلى بلغائكم في كل من بدّ في فن من الفنون، وتجعلون الأمر قسمة بينهم حتى يعارضوا القرآن بمثل نظمه، ولكنهم عجزوا جميعًا عن ذلك مما يؤكد إعجاز القرآن، وعدم مجاراة بلغائكم لأسلوبه ونظمه .

❁❁❁

٣٤- وإذا كان الشاعر يلجأ في شعره إلى معنى لم يصل إليه أحد قبله ولم يدانيه أحد في لفظه ونظمه، أيكون ذلك في جميع قصائده، وفي كل بيت من أبياته الشعرية أم أن رفعته تكون في بيت من مائة بيت، أو في قصيدة من مئات القصائد؟ فلابد من الاعتراف بأن ذلك يكون في النادر والقليل من شعره.

أما إعجاز القرآن فقد جاء في كل سوره؛ بل في جميع آياته، وليس في سورة دون سورة، ولا في آية خلاف آية، مما يجعلكم تسلمون بإعجاز القرآن كله دفعة واحدة.

❁❁❁

٣٥- وهكذا القول في الفصول التي ذكروا أنَّه لم يُوجَدْ أمثالُهَا في معانيها؛ لأنها لا تستمرُّ ولا تكثُرُ، ولكنك تَجدُهَا كالفُصوص الثمينة والوسائط النَّفيسة وأَفْرَادِ الجواهر[1] ، تَعُدُّ كثيراً حتى ترَى واحداً، فهذا وشِبْهُهُ من القول في دَفْعِهم- مع تسليم ما ظَنُّوه من أنَّ التحدِّي كان إلى أنْ يُعبِّر عن معاني القرآن أنْفُسها مُمكنٌ غيرُ مُتعَذِّر، إلا أنّ الأَولَى أنْ يُلْزَم الجَدَدُ الظَّاهر[2] وأن لا يُجَابوا إلى ما قالوه من أنَّ التحدِّي كان إلى أن يُؤْتَى في أنْفُس معانيه بنظمٍ ولفظ يُشَابهه ويُساويه، ويُجْزَم لهم القولُ بأنَّهم تُحُدُّوا إلى أن يجيئوا في أيِّ مَعْنًى أرادوا مُطْلَقًا غير مُقَيَّد، ومُوسعًا عليهم غيرَ مُضَيَّق، بما يشبه نظم القرآن أو يَقْرُب من ذلك.

❁❁❁

٣٦- وَمِمَّا يُحيل أنْ يكون التَحَدِّي قَدْ كان إلى ما ذكروه ومع الشرط الذي توهَّمُوه، أنَّ العربَ قَدْ كَانَتْ تعرفُ «المُعارَضَةَ»[3] ما هي وما شرطها، فلو كان النبي ﷺ قد عَدَلَ بهم في تحدِّيه لهم إلى ما لا يُطَالَبُ بمثله، لكان ينبغي أن يقولوا: «إنك قد ظلمتَنَا، وشرطْتَ في معارضة الذي جئتَ به ما لا يُشْتَرط، أَوْ مَا لَيْسَ بواجب أن يُشْتَرَط، وهو أن يكون النَّظْم الذي نُعَارض به في أنفس مَعَاني هَذَا الذي تَحدَّيتَ إلى معارضته، فدعْ عنَّا هَذَا الشَّرْطَ، ثم اطْلُب فإنَّا نُريك حينئذ ممَّا قَالَهُ الأوَّلون وقُلْنَاهُ وما نقوله في المستأنَف، ما يُوازي نَظْمَ ما جئتَ به في الشَرف والفَضل ويُضَاهيه، ولا يَقْصُر عنه». وفي هذا كِفايةٌ لِمَنْ كَانَت لَهُ أُذُنٌ تَعي[4] ، وَقَلْب يَعْقِلُ.

❁❁❁

قَد تَمَّ الذي أردتُه في جواب سؤالهم، وبانَ بُطلانه بيانًا لا يبقى معه إن شاءَ اللهُ شكٌّ لناظر، إذا هو نَصَحَ نفسه وأذْكَى[5] حسَّه، ونَظَرَ نَظَرَ مَنْ يُريد الدِّين، ويرجو ممَّا عنْد الله، ويريد فيما يقولُ ويعملُ وَجْهَ تقدَّسَ اسمه، وإليه تعالى نَرْغَبُ في أن يجعلَنَا ممَّن هذه صفته في كل ما نَنْتَحيه ونَنْظُر فيه، بفَضْله ومَنِّه ورحمته، إنَّه عَلَى مَا يَشَاءُ قدير.

الحَمْدُ لله حَقَّ حَمْده، والصلاةُ على رسوله محمد وآله من بعده.

❁❁❁

---

(١) أفراد الجواهر: أعيان الجواهر وأغلاها قيمة.

(٢) الجدد الظاهر: الطريق الواضح.

(٣) المعارضة: المناقضة في الكلام.

(٤) أذن تعي: تسمع وتحفظ.

(٥) أذكى [illegible]

٣٥- وهكذا القول في النثر، تحصى كثيراً من الفقرات، ثم لا تجد إلا واحدة تتبوأ المنزلة السامية كمن يعثر على جوهرة يتيمة بين ركام من الأتربة.

ونحن نسلم لهم بهذا القول مع التسليم بظنهم أن التحدي إنما وقع في أنفس معاني القرآن.

ولكن لماذا نركب الصعب ونحيد عن الطريق الواضح: وهو أن التحدي إنما كان في أي معنى يشاءون، ولكن بلفظ ونظم مماثل للقرآن، وليس بالإتيان بأَنْفُس المعاني.

❁❁❁

٣٦- ومما يجعل أمر التحدي بأنفس معاني القرآن مستحيلاً وغير وارد، أن العرب كانت تعرف المعارضة وشروطها، ولو كان التحدي بنفس معنى القرآن لحقّ لهم أن يطلبوا من الرسول ﷺ تنحية هذا الشرط، وقالوا: دع عنَّا هذا الشرط، ثم اطلب منا فنريك من أقوال السابقين واللاحقين ما يوازي نظم القرآن الذي تدعي إعجازه، ولنا في ذلك فضل وشرف يضاهيه ولا يقل عنه.

والحمد لله والصلاة على رسوله محمد وآله أجمعين.

❁❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

فصلٌ

في الذي يلزمُ القائلين بالصَّرْفة

٣٧- اعلم أنّ الذي يَقَعُ في الظنِّ من حديث القول بالصَّرْفَة[1]، أن يكون الذي ابتدأ القولَ بها ابتدأه على تَوَهُّم أنّ التَّحَدي كان إلى أن يُعبّر عن أنْفُس معاني القرآن بمثل لفظه ونَظْمه، دون أن يكون قد أُطْلِقَ لهم وخُيِّروا في المعاني كلِّهَا، ذاك لأنَّ في القول بهَا علَى غَيْر هَذَا الوجه أُموراً شَنيعة، يَبْعُدُ أن يرتكبَها العاقلُ ويدخلَ فيها، وذاك أنَه يلزَم عليه أن تكونَ العربُ قد تراجعت حالُهَا في البلاغَة والبيان، وفي جَوْدَة النظم وشَرَف اللفظ- وأن يكونوا قد نَقَصُوا في قرائحهم وأَذهانهم، وعَدمُوا الكثير مما كانوا يستطيعون- وأن تكون أشعارُهم التي قالوها، والخطبُ التي قاموا بها، وكلُّ كلام احْتَفَلُوا فيه[2]. منْ بَعْد أن أُوحيَ إلى النبي ﷺ، وتُحدُّوا إلى معارضة القرآن- قاصرةً عمَّا سُمِعَ منهم من قبلَ ذَلكَ القُصُورَ الشديد، وأنْ يكون قد ضَاقَ عليهم في الجُمْلة مَجَالٌ قد كان يتَّسِع لهم، ونَضَبَت[3] عنهم موادٌّ قد كانت تُغزُر[4]، وخَذَلَتهم قُوًى[5] قد كانوا يَصُولون بهَا، وأن تكون أشعارُ شُعراء النبيِّ ﷺ التي قَالُوهَا في مدحه عليه السلام وفي الرد على المشركين- ناقصةً متقاصرةً عن شعرهم في الجاهلية، وأنْ يُشَكَّ في الذي رُوي في شَأن حسَّان من نحو قوله عليه السلام: «قُلْ وروحُ القُدُس مَعك»[6]؛ لأنَّه لَا يكونُ مُعَانًا مُؤَيَّداً من عند الله، وهو يَعْدَمُ[7] ممَّا كان يَجده قبلُ كثيراً، ويتقاصر أُنُفُ[8] حاله عن السَّالف منها تقاصراً شديداً.

❁❁❁

---

(١) الصرفة: معناها أن العرب كانوا قادرين أن يأتوا بمثل معاني القرآن بلفظه وتأليف كلماته إلا أن الله صرفهم عن ذلك.

(٢) احتفلوا به: اهتموا به وقدروه.

(٣) نضبت: جفت.

(٤) تغزز: تفيض.

(٥) خذلتهم قوى: تخلت عنهم قدرتهم.

(٦) روح القدس: جبريل عليه السلام.

(٧) يعدم: يخلو.

(٨) أُنف حاله: جديد حاله.

فصلٌ

القول بالصرفة

٣٧- إن الذين قالوا بالصَّرفة بنوا كلامهم على توهم أن إعجاز القرآن يكون في التعبير عن أنفس المعاني القرآنية بلفظها ونظمها، وليس مطلق معانٍ يأتون بها غير مقيدة بالمعاني التي تحدث عنها القرآن.

ويترتب على هذا القول بالصرفة أن يكون العرب قد تضاءلت بلاغتهم وضعف بيانهم في زمن الرسول ﷺ عن بلاغة العرب وروعة بيانهم في الجاهلية، وأن تكون أشعارهم وخطبهم وكل كلام قالوه بعد أن أوحي إلى النبي قاصر عما قيل قبل مبعثه، وضاق عليهم ما اتسع على من سبقهم، وأن يكون قول الرسول ﷺ لحسان بن ثابت: «قل وروح القدس معك» مشكوكًا في صحته؛ لأنه لا يطلب العون لرجل قد عدم ما كان متوافرًا عند قومه الأولين، وقصر عنهم قصورًا شديدًا .

❁❁❁

٣٨- فإن قالوا: إنَّه نُقْصَانٌ حَدَثَ في فصاحتهم من غير أنْ يَشْعُروا به.

قيل لهم: فإنْ كان الأمرُ كذلك، فلم تَقُمْ عليهم حُجَّة؛ لأنه لا فرقَ بين أن لا يكونُوا قد عَدِمُوا شيئًا من الفصاحة التي كانوا يَعْرِفُونها لأنفسهم قبل التَّحَدِّي بالقرآن والدعاءَ إلى مُعَارضته، وبَينَ أن يكونوا قد عَدِمُوا ذَاكَ، ثُمَّ لم يعلموا أنَّهم مُمْكِنًا قبل أنْ تُحُدُّوا. ولا يكون مَنْعٌ حتى يُرام الممنوع[1] ولا يُتَصَوَّر أَنْ يَرُومَ الإنسانَ الشيءَ ولا يعلمُه، ويَقْصِدَ في قول له وفعل إلى أن يجيء به على وصف وهو لا يعرف ذلك الوصف ولا يَتَصَوَّرُه بحال من الأحوال، وإذا جَعلناهم لا يعلَمون أنَّ كَلامَهم الذي يتكلَّمون به اليومَ قاصرٌ عن الذي تكلَّمُوا به أَمْس، وأنْ قَدْ امتنعَ عليهم في النَّظْمِ شيءٌ كان يُوَاتيهم[2]، وسُلِبوا منه معنًى قد كان لهم حَاصِلاً- استحالَ أنْ يعلموا أنَّ لنظم القرآن فَضْلاً على كلامهم الذي يُسْمَع منهم، وعلى النَّظْم الوَاهن الباقي لهم[3]. ذاك لأنَّ عُذْرَ القائل بالصَّرْفة، أنَّ كلامهم قَبْل أن تُحُدُّوا قد كان مثل نَظْم القرآن، ومُوازيًا له، وفي مبلغه من الفصاحة.

***

٣٩- وإذَا كان كذلك، لم يُتَصَوَّر أن يعلَمُوا أن للقرآن مزيةً على كلامهم، وعندهم أن كلامهم باق على ما كان عليه في القديم لم يَنْقُص ولم يَدْخُلْه خَلَلٌ[4]، وإذا لم يُتَصَوَّر أن يعلموا أن للقرآن مزيةً على ما يقولونه ويَقْدرون عليه في الوقْت، لم يُتَصَوَّر أن يُحاولوا تلك المزيّةَ، وإذا لم يحاولوها لم يُحسُّوا بالمنع منها والعَجْز عن نَيْلها، وإذا لم يُحسُّوا بالعجز والمَنْع لم تقم عليهم حُجَّةٌ به، فالذي يُعْقَل إذَنْ مع هذه الحال، أن يعتقدوا أنَّهم قد عَارَضُوا القرآن وتكلَّمُوا بما يُوازيه ويَجْري مَجْرَى المِثْلِ له، من حيث إنَّه إذا كان عندهم أنَّ كلامهم باق على ما كان عليه في الأصل وَقَبْل نزول القرآن، وكان كلامُهم إذ ذاك في حَدِّ[5] المِثْلِ والمُساوي للقرآن، فواجبٌ مع هذا الاعتقاد أن يعتَقدُوا أنّ في جملة ما يقولونه في الوَقْت ويقدرون عليه، ما يُشْبه القرآنَ ويُوازيه.

---

(١) يرام الممنوع: يقصد.

(٢) يواتيهم: كان طوعهم وقادرين عليه.

(٣) الواهن: الذي أصابه الضعف.

(٤) خلل: فساد.

(٥) في حد المثل: في نطاقه وحدوده.

٣٨- فإن قالوا: إن فصاحة العرب قد نقصت دون شعور منهم. نقول: إن كان الأمر كما زعمتم لم تقم عليكم الحجة، ولا فرق بين ألاَّ يتصفوا بالفصاحة التي كانوا يعرفونها في أنفسهم، وبين أن تكون لديهم الفصاحة ثم سلبت عنهم دون أن يعلموا ذلك؛ لأنهم كما يزعمون كانوا قادرين أن يأتوا بمثل القرآن في لفظه ونظمه قبل التحدي؛ إذ لا يتصور أن يقصد المرء في قول أو فعل، أو يأتي بوصف لا يعرفه ولا يتصوره في حال من الأحوال.

وإذا كان كلامهم الذي يتحدثون به اليوم قاصرًا عما كانوا يتحدثون به بالأمس، وامتنع عليهم النظم الذي كان سهلاً عليهم يواتيهم حيثما أرادوا، استحال عليهم أن يعرفوا أن لنظم القرآن فضلاً على كلامهم الذي يتفوهون به، فعذر القائلين بالصرفة أن كلامهم كان مثل نظم القرآن بلاغة ونظمًا، ولكن قبل أن يتحداهم الرسول ﷺ بالقرآن.

ومن ثم كان قولهم بالصرفة، أي أن الله صرفهم عن الإتيان بمثل نظم القرآن، وإن كانوا قادرين على أن يأتوا بمثله .

❁❁❁

٣٩- وإذا قالوا: إن إعجاز القرآن كان بالصرفة، لم يتصور منهم أن يكون للقرآن ميزة على كلامهم، وكلامهم في زمن الرسول ﷺ لم ينقص عن كلامهم قبله، وإذا لم يحسوا بالعجز والمنع لم تقم عليهم الحجة.

فالذي يعقل والحالة هكذا أن يعتقدوا أنهم عارضوا القرآن وأتوا بمثله وما يجري مجراه وأن يعتقدوا في جملة ما يقولون ما يشبه القرآن ويوازيه بلاغة ونظمًا.

❁❁❁

٤٠- واعلم أنه يَلْزَمهم أن يَقْضُوا(١) في النبيّ بما قَضَوْا في العرب، من دخول النَّقْص على فصاحتهم، وتَرَاجُع الحال بـهم في البيان، وأنْ تَكُون النُّبوَّةُ قد أوجبت أن يُمْنَع شَطْرًا(٢) من بَيانه، وكثيرًا مما عُرِفَ له قبلَها من شَرَف اللَّفظ وحُسْن النَّظْم، ذاك لأنهم إذا لم يقولوا ذلك، حصل منه أن يكون عليه السلام قد تَلاَ عليهم: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا(٣)﴾ [الإسراء:٨٨] في حال هو يستطيعُ فيها أن يجيء بمثل القرآن ويَقْدَرُ عليه، ويتكلَّم ببعض ما يوازيه في شَرف اللَّفْظ وعُلُو النظم، اللهُمَّ إلا أَنْ يقتحمُوا(٤) جهالةً أُخرى، فيزعموا أنه عليه السلام قد كان في الأصل دُونهم في الفصاحة، وأن الفضل والمزية التي بها كان كلامُهم قبلَ نزول القرآن في مثْل لَفْظه ونَظْمه، قد كان لبُلغاء العرب دون النبي، وإذا قالوا ذلك، كانوا قد خَرجوا من قبيح القول إلى مثله، فلم يَشُكَّ أحدٌ أنَّهُ ﷺ لم يكن مَنْقُوصًا في الفصاحة، بل الذي أَتَتْ به الأخبار أنَّه ﷺ كان أفْصَح العرب.

❁❁❁

٤١- وممَّا يلزَمُهم على أصْل المقالة أنّه كان ينبغي لَهُم- لَو أنَّ العربَ كانت مُنعت منزلةً من الفصاحة قد كانوا عليها- أنْ يعرفوا ذلك من أنفسهم، كما قدَّمت، ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكْرُ ذلك، ولكانوا قد قالوا للنبي ﷺ: «إنَّا كُنَّا نستطيع قَبْل هذا الذي جئتنَا به، ولكنك قد سَحَرْتَنَا، واحْتَلْتَ(٥) في شيء حال بيننا وبينه»، فقد نسبوه إلى السِّحر في كثير من الأمور كما لا يخفى، وكان أَقَلُّ ما يجب في ذلك أن يتذاكَرُوه فيما بينهم، ويشكُوَهُ البعضُ إلى البَعْض، ويقولوا: «مَا لَنَا قَدْ نَقَصْنَا في قرائحنا، وقد حَدَث كُلُولٌ(٦) في أذهاننا»، ففي أنْ لم يُرْوَ ولم يُذْكَرْ أنَّه كَانَ منهم قولٌ في هذا المعنى، لا ما قَلَّ ولا مَا كَثُر، دَليلٌ على أنَّه قولٌ فَاسدٌ، ورأى ليس من آراء ذوي التحصيل(٧).

---

(١) يقضوا: يحكموا.
(٢) الشطر: نصف الشيء، وقد يستعمل في الجزء منه.
(٣) ظهيرًا: معينًا.
(٤) يقتحموا: يدخلوا قسرًا.
(٥) احتال: استعمل مهارته ليصل إلى مراده.
(٦) كلول: كلل وضعف.
(٧) ذوي التحصيل: العقل والإدارك.

٤٠- وإذا قالوا: إن فصاحتهم في زمن النبي ﷺ قد نقصت عما كانت عليه قبل مبعثه فقد وجب عليهم أن يقضوا في النبي بما قضوا به على أنفسهم من نقصان الفصاحة، وأنه منع من شرف اللفظ وحسن النظم كما منعوا، وإذا لم يقضوا بذلك لكان قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨] ، وهو في حال من الفصاحة يستطيع أن يجيء بمثل القرآن في شرف اللفظ ودقة النظم.

اللهم إلا إذا زعموا أن الرسول عليه السلام كان أقل منهم فصاحة، وهذا من قبيح القول؛ إذ الثابت أنه كان أفصح الناس لسانًا وأقواهم بيانًا .

❁❁❁

٤١- ولو أنهم من الفصاحة التي كانوا عليها قبل زمن النبي ﷺ لكان ينبغي أن يعرفوا ذلك في أنفسهم، ولو عرفوا لتحدثوا به وتحدث الناس عنهم، ولو كان ذلك حقيقة لقالوا للنبي عليه السلام: كنا نستطيع أن نأتي بمثل الذي جئت به، ولكنك سحرتنا وحلت بيننا وبين ذلك .

ولكنهم يذكروا ذلك ولم يرووه، لا بما قل ولا بما كثر، مما يدل على فساد قولهم بالصرفة.

❁❁❁

٤٢- هذا، وفي سياق[١] آية التحدِّي ما يدلُّ على فَسَاد هذا القول، وذلك أنَّه لا يُقال عن الشيء يُمْنَعُهُ الإنسان بعد القُدْرة عليه، وبَعْد أنْ كان يَكْثُر مثلُه منه: «إني جئتُكم بما لا تَقْدرونَ على مثله ولو احْتَشَدْتم له[٢]، ودعوتُم الإنْسَ والجنَّ إلى نُصْرتكم فيه»، - وإنما يقال: «إنِّي أُعْطيتُ أنْ أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه وأَمْنَعُكم إيّاه، وأن أُفْحمَكم[٣] عن القَول البليغ، وأُعْدمكم اللَّفْظَ الشَّريف»، وما شاكلَ هذا. ونظيره أن يُقَالَ للأَشدَّاء وذَوي الأَيْد[٤]: «إنَّ الآيةَ أن تَعْجزُوا عن رَفْع ما كان يَسْهُل عليكم رَفْعُه، وما كانَ لا يَتَكَاءدُكم[٥]، ولا يثقُلُ عليكم».

ثُمَّ إنَّه ليس في العُرف ولا في المعقول أن يقال: «لو تعاضدتم[٦] واجتمعتم جميعكم لم تقدروا عليه»، في شيء قد كان الواحدُ منهم يَقْدر على مثْله، ويسهل عليه ويستقلُّ به، ثم يمنعون منه- وإنما يقال ذلك حيثُ يُراد أن يقالَ: «إنكم لم تستطيعوا مثْلَه قَطُّ، ولا تستطيعونه البَتَّةَ[٧] وعلى وجه من الوجوه، حتى إنكم لو استضَفْتم إلى قُواكم وقُدركم التي لكم قُوىً وقُدَراً[٨]، وقد استمدَدْتم من غيركم، لم تستطيعوه أيضًا» من حيث إنه لا معنى للمعاضدة والمُظافرة والمعاونة[٩]، إلاَّ أنْ تَضُمَّ قدرتَك إلى قدرة صاحبك حتى يَحْصل باجتماع قدرتكما ما لم يكن يَحْصُل (لأحدكما منفرداً).

فقد بان إذَنْ أنْ لا مَسَاغ لحمل الآية على ما ذَهَبُوا إليه، وأنْ لا مُحْتَمَل فيها لذلك على وجه من الوجوه، وظَهَرَ به وسائر ما تقدَّم أنَّ القولَ بالصَّرْفة، ولاسيما على هذا الوجه، قولٌ في غاية البُعْد والتَهَافُت[١٠]، وأنه من جنس ما لا يُعْذَر العاقل في اعتقاده، ولم أَقُل: «ولاسيما على هذا الوجه»[١١]، وأنا أعني أن للقول بها على الوجه الأول مَسَاغًا[١٢] في الصحة، ولكني أردت أن فساده كأنّه أظهرُ، والشناعةَ عليه أكثرُ، وإلا فما هما، إن أردتُ البُطْلانَ، إلا سواءٌ.

---

(١) سياق آية التحدي: أسلوب الآية التي جرت عليه.
(٢) احتشدتم له: اجتمعهم.
(٣) أفحمكم: أصدكم وأمنعكم وأقطع حجتكم.
(٤) ذوي الأيد: أصحاب القوة.
(٥) يتكاءدكم: يشتد عليكم ويصعب.
(٦) تعاضدتم: ساند بعضكم بعضًا.
(٧) لا تستطيعونه البتة: لا تستطيعونه أبدًا.
(٨) قُدَرا: قدرة.
(٩) المعاضدة: المؤازرة، المظافرة: النصرة، المعاونة: المساعدة.
(١٠) التهافت: البطلان والسقوط.
(١١) لاسيما: خاصة.
(١٢) مساغًا: طريقًا.

٤٢- وفي سياق قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ ما يدل على فساد قـولهم بالصرفة؛ لأنه إذا منع المرء من شيء قد اعتـاد على فعله لا يقال له: إني قد جئتكم بما لا تقدرون على مثله، ولو كنتم جميعًا بما فيكم إنسكم وجنكم، ولكن يقول: إني قـد جئتكم بكلام أحيل بينكـم وبين الإتيان بمثله، وأمنعكم عن فعل نظيره، وإن كنتم قبل ذلك تستطيعونه.

وليس من المنطق أن يـقول لهم: لو اجـتـمـعتـم كلكم على الإتيـان بمثله لما استطعـتم، في شيء كانوا يقدرون عليـه ويسهل لديهم، وإنما يقـال في مثل هذه الأمور: أتيـتكم بشيء، لا تستطيعـون أن تأتوا بمثله قط، ولو أضفـتم إلى قواكم قوى أخر، إذ لا معنى للمساندة والمؤازرة.

فالآية - إذن - لا تحمل على ما ذهبوا إليه من قولهم بالصرفة لما في ذلك من التهافت والبعد، والبطلان والفساد.

❁❁❁

٤٣- فـإن قلتَ: فكيف الكلامُ علـيهم، إذا ذهبـوا في «الصَّـرْفَـة» إلى الوجـه الآخر، فزعموا أن التحدِّي كان أن يأتُوا في أَنْفُسِ مَعَاني القرآن بِمثْل نَظْمه ولفظه؟ وما الذي دَلَّ على فساده؟

فإنَّ علَى فساد ذلك أَدلَّةً مـنها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣]، وذاك أنَّا نعلمُ أنَّ المعنى: فأتوا بعشر سـور تَفْترونَها أنتم- وإذا كان المعنى على ذلك، فبنَا أن ننظرُ في الافتراء إذا وُصفَ به الكلام، إلى المعنى يَرْجِعُ أَم إلى اللَّفْظ والنـظم؟ وقد عـرَفْنَا أَنَّهُ لا يرجعُ إلاَّ إلى المعنى، وإذا لم يرجع إلا إلى المعنى وجب أن يكون المراد: إن كنتم تزعُمون أَنِّي قد وَضَعْتُ القرآنَ وافْتريتُهُ، وجئتُ به من عنْد نفسي، ثم زعـمتُ أَنَّهُ وَحْيٌ من الله، فضعُوا أنتم أيضًا عَشْرَ سُـوَر وافتَرُوا معانيـها كما زَعمـتم أَنِّي افتريتُ معانيَ القـرآن، فإذا كان المراد كذلك، كانَ تقديرهُـم أن التـحديِّ كان أن يَعْمدوا إلى أَنْفُس معاني القـرآن فيُعبِّروا عنها بلفظ ونَظْم يشبه نَظْمَه ولفظَه، خروجًا عن نصِّ التنزيل وتحريفًا له[1].

وذلك أَنَّ حقَّ[2] اللفظ- إذا كـان المعنى ما قـالوه- أن يُقال: «إن زعمـتم أَنِّي افتريتُه، فأتوا أنتم في معاني هذا المُفْتَرى بمثل ما تَرَون من اللَّفْظ والنَّظْم»، يُبيِّنُ ذلك أَنَّهُ لو قَال رجل شعرًا فأحسن في لفظه ونَظْمه وأبلغ، وكان له خَصمٌ يُعانده، فَعَلِمَ الخَصْمُ أنه لا يَجد عليه مَغْمَزًا[3] في النظم واللفظ، فترك ذلك جانبًا وتشاغَل عنه، وجعل يقـول: «إنِّي رأيتُك سَرَقت مـعَاني شعـرك وانْتَحلتَـها[4] وأخذتها من هذا وذاك»، قال له الرجل في جـواب هذا الكلامَ: «إنْ كُنْتُ قَدْ سَرَقتُ معـاني شعْري، فقل أنتَ شعْرًا مثله مَسْروقَ المعـاني»- لم يُعْقَلْ منه إلا أنه يقول: «فَقُلْ أنتَ شعرًا في معان أُخَر تَسْرقـها كما سرقتُ معانيَّ بزعمك» - ولم يُحْـتَمَل أن يريد: «اعْمَدْ إلى معانيَّ فقُلْ فيها شعـرًا مثل شعري»، وإنما يعقل ذلك إذا هو قال: «إن كنتُ قد سَرَقْتُ مـعاني شعري، فـقل أنت في هذه المعاني المسروقـة مثْلَ الذي قلتُ، وانظم فيها الكلام مثْل نَظْمي لكلامي، وحبِّره تَحْبيري»[5].

---

(١) تحريفًا له: خروجًا عن معناه.
(٢) حق اللفظ: أصل اللفظ.
(٣) مغمزًا: طعنًا.
(٤) نحل الشيء: نسبه لنفسه.
(٥) حبّره تحبيري: افرغ جهدك في تزيينه وتنميقه.

٤٣- وما القول إذا كانت الصرفة عندهم أن يأتوا بأنفُس المعاني القرآنية بمثل لفظها ونظمها، وما دليل فساده؟

يدل على فساد ذلك كثير من الأدلة .

منها قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ [هود:١٣] أي افتروا معانيها كما زعمتم أني افتريت معاني القرآن. وهذا واضح من سياق الآية، فإذا قدرتم أن المراد هو أن تأتوا بأنفس معاني القرآن كان ذلك خروجًا عن نص الآية وتحريفًا لها.

ومنها: إن زعمتم ما تقولون لكان ينبغي أن يكون أصل الكلام: إن زعمتم أني افتريته، فأتوا أنتم في معاني هذا المفترى بما ترون من اللفظ والنظم.

كقولك لمن يزعم أنك سرقت شعرك وأخذته من فلان أو فلان: إن كنت سرقتُ معاني شِعْري فقل أنت في هذه المعاني التي سرقتها مثل الذي قلتُ، وليس هذا بمستساغ.

***

٤٤- هذه جُمْلَةٌ لا تَخْفَى على من عَرَفَ مخارجَ الكلام، وعَلِم حَقَّ المعنى من اللفظ، وما يُحْتَمل ممَّا لا يحتمل، ومنها ما تقدَّم، من أَنَّهُ لا يُقال في الشيء قد كان يكثر مثْلُه من الإنسانَ ثُمَّ مُنِعَ منه: «إيت بمثله، واجْهَدْ جُهْدك، واستعن عليه، فإنك لا تستطيعه ولو أَعَانَكَ الجن والإنس»، وإنَّمَا يُقَالُ ذلك في البديع المُبْتَدأ[١] ، أو الذي لم يُسْبَقْ إليه، ولم يُوجَدْ مثْلُه قَطُّ.

وهذا المعنى وإنْ كان يلزَمُهمْ في الوجهين، فإنَّه لَهُم في هذا الوجه الذي نحنُ فيه ألزمُ، وذاكَ أن قولك للرجلِ يَقْدر على مثل الشيء اليومَ في كثير من الأحوال والأُمور، ويَعُوقه عنه عائقٌ[٢] في حالَ واحدة وأمر واحد: «لو اجتمع الإنسُ والجن فأعانوكَ لم تَقْدر على مثله»- أبعدُ وأقبحُ منَّ قولِّك ذلكَ، وقد كان يَقْدرُ عليه في سَالف الأزمان، ثم مُنِعَه جملةً، وجُعِلَ لا يستطيعه البتة.

ومنها الأخبار التي جاءَت عن العرب في تعظيم شأن القرآن، وفي وَصْفه بما وصفوه به من نحو: «إنّ عليه لطَلاوةً، وإن له لحلاوة، وإن أسْفَلَه لمُغْدق، وإن أعلاه لمُثْمرٌ»[٣] ، وذاكَ أن مُحَالاً أن يُعظِّمُوه، وأن يُبْهَتُوا عند سماعه، ويَسْتَكينوا له[٤] ، وهم يَرَون فيما قالوه وقَالَه الأوَّلون ما يوازيه، ويعلمون أنه لم يتعذَّر عليهم لأنهم لا يَسْتَطيعون مثلَه، ولكن وجدوا في أنفسهم شبْه الآفة والعارض[٥] يَعْرِضُ للإنسان فَيمْنَعُه بعض ما كان سهلاً عليه، بل الواجبُ في مثْلَ هذه الحال أن يقولوا: «إنْ كُنَّا لا يَتَهيَّأ لَنَا أن نَقُول في معاني ما جئتَ به ما يُشْبهه، إنَّا لَنَأتيك في غيره من المَعَاني ما شئتَ وكيف شئتَ، بما لا يَقْصرُ عنه ولا يَكُونَ دُونَه».

❁❁❁

(١) البديع المبتدأ: الشيء يبتدأ به ولم يسبق إليه .

(٢) يعوقه عائق: يمنعه مانع .

(٣) معذق: يصل إلى الأغوار والأعماق في كل اتجاه .

(٤) يبهتوا عند سماعه: يدهشوا له، يستكين للشيء: يخضع له .

(٥) الآفة: العلة والداء، والعارض: الشيء يعرض للمرء فيمنعه مما كان قادرًا عليه .

٤٤- ولا يخفى على من عنده علم بأساليب الكلام، فإنه لا يقال لمن يحسن القول ويأتي بالكثير منه، ثم يمنع عنه، لا يقال: إنك لا تقدر أن تأتي بمثل ما كنت تأتي به، ولو استعنت بالإنس ومعهم الجن، وإنما يقال ذلك لمن ابتدأ كلامًا لم يسبق إليه، ولم يوجد مثله أبدًا .

وقد جاء عن العرب أخبار كثيرة تعظم من شأن القرآن، وخلعوا عليه من الوصف ما لا مزيد عليه كقولهم: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لمغذق وإن أعلاه لمثمر»، ومحال أن يعظموا القرآن كل هذا التعظيم وهم يرون في كلام العرب ما يوازيه ولا يتعذر عليهم الإتيان بمثله، ولكنهم وجدوا في أنفسهم من العلل ما يدفعهم عنه، وهو قريب منهم وفي متناول أيديهم.

بل ينبغي في مثل هذه الحال أن يقولوا: لا نستطيع أن نأتي بنفس معاني القرآن، ولكن نستطيع أن نأتي بغير معانيه ما شئنا بحيث يوازيه ولا يقصر عنه.

❁❁❁

٤٥ - وجُمْلَة الأمـر أن عَلَمَ النُّبـوَّة[١] عندئذ والبُـرْهَانَ، إنَّمَـا كـان يكون في الصَّـرْف والمنع عن الإتيان بمـثل نَظْم القرآن لا في نَـفْس النظم، وإذا كان كـذلك، فينبغـي إذا تعجَّب المُتَعَجِّب وأكـبرَ المُكْبِرُ[٢] ، أن يَقْصد بـتعجبه وإكـباره إلى المَنْع الذي فيه الآية والبرهان، لا إلى الممنوع منه، وهذا واضحٌ لا يُشْكَل[٣] .

❁❁❁

٤٦ - فإنْ قَالُوا: إنَّهُ لَيَكُون أن يَسْتَحْسن الشَّاعرُ الشِّعرَ يقولُه غَيْرُه ويُكبر شأنه، ويَرَى فيـه فَضْلاً ومَزِيَّةً على مـا قاله هو من قَبْلُ، ثُمَّ هو لا ييـأس من أن يقدرَ على مثْلـه إذا هو جَهد نَـفْسَهُ وتَعَـمَّل له[٤] ، فنحنُ نجـعل لفظَ القرآن ونَظْمَـه على هذا السبيل، ونقول: إنهم سَمعُوا منهـا ما بَهَرهم وعَظُم في نفوسهم، وأنهم كانوا على حَال أَنُسُوا[٥] من أنفسهم بأَنَّهُم يأتُون بمثله إذا هُمُ اجتهدُوا، فحيلَ بينهم وبين ذلك الاجْتهاد، وأُخُذوا عن طريقه، ومُنعوا فَضْل المُنَّة[٦] التي طمعوا معها في أن يَجْرُوا إلى تلك الغـاية ويبلُغَوا ذاكَ الذي أرادوا، وإذا كُـنَّا نعلم أن الشاعـر المفلق[٧] ربّما اعتاص[٨] القوْلُ عليه حَتَّى يَعْيَا[٩] بقافية، وحتى تَنْسَدَّ عليه المذاهبُ، وأن الخطيبَ المصْقَع يُرْتَج[١٠] عليه حتى لا يـجد مقالاً، وحتى لا يُفـيضَ بكلمة، لم يكن الذي قُلْناه وقدَّرنَاه بعيداً أن يكونَ، وأنْ يَسَعَهُ الجَوَازُ ويَحْتملَه الإمكان.

قـيل لهم: أنتمُ الآنَ كأنَّكُم أردتم أن تُحْـسِّنُوا أمـركم، وأن تُغَطُّوا على بعض العَـوَار[١١] ، وأن تَتَـمَلَّصُـوا[١٢] من الذي تُلْزَمُـون، وليـس لكم في ذلك كـبيـرُ جَدْوَى[١٣] إذَا حُقِّقَ الأمرُ، وإنَّمَا هو خداعٌ وضرب من التَّزويق.

---

(١) علم النبوة: دليل الرسالة .
(٢) أكبر المكبر: إكبار الكبير .
(٣) واضح لا يشكل: لا يغمض ولا يخفى .
(٤) تعمل له: تفرغ له واهتم به .
(٥) أنسوا من أنفسهم: رأوا منها .
(٦) فضل المنّة: فضل المزية .
(٧) الشاعر المفلق: البارع الذي لا نظير له .
(٨) اعتاص القول: خفي والتوى وصعب .
(٩) يعيا بالقافية: يجهد ويضعف .
(١٠) الخطيب المصقع: المفوه ذو البيان الواضح، ارتج عليه: استغلق عليه الكلام .
(١١) العوار: العيب والنقص .
(١٢) تتملصوا: تتخففوا وتهربوا .
(١٣) كبير جدوى: عظيم فائدة .

٤٥- فدليل النبوة هو عدم قدرتهم على الإتيان بمثل نظم القرآن، وليس بنظم القرآن نفسـه، والتعجب حدث من عـدم القدرة على إمكانهم ذلك، وليس لأنهم صرفوا عنه، وهذا من الوضوح بمكان .

❁❁❁

٤٦- وإذا استمع شاعر إلى شـعر شاعر آخر فاستحسنه، فـإنه يرى فيه فضلاً ومزية لم يستطع هو نفسه أن تكون في شعـره نفس الميزة، إلا أنه لا ييأس فيجهد نفسه ليصل إلى مثل هذا الشعر الذي سمعه في الجودة والميزة.

وأمر القرآن كذلك، فقد سمعـوا ما يبهر، ولكنهم يئسوا في أنفسهم أن يأتوا بمثله إذا اجتهدوا، ولكن حيل بينهم وبين هذا الاجتهاد فلم يقدروا.

وإذا كنا نعلم أن الشاعر العظيم المبهر ربما صعـبت عليه قافية وعيي بها، وأن الخطيب المصقع قد يرتج عليه فلا يفيض بعبارة، فلم يكن ما قلناه في شأن العرب بعيداً عن مسمعك، ويحتمل إمكانهم الإتيان بمثل القرآن إلا أنه قد حدث معهم ما يحدث للشاعر المفلق والخطيب المصقع.

❁❁❁

وَأَوَّلُ ما يَدُلُّ على بُطْلان ما قلتم، أنَّ الذي عرفنا من حال النَّاس فيما سبيله ما ذكرتم، التضَّجرُ[(١)] ، والشكوى، وأن يقولوا: «ما بَالُنا؟ ومن أَيْنَ دُهَينا؟ وكيف الصُّورة؟ إنَّا وإن كُنَّا نسمعُ قولاً له فَضْلٌ ومزيةٌ على ما قلناه، فإنه ليس بالذي ينبغي أن نَعجز عنه هكذا حتى لا نَسْتَطيع في معارضته ما نَرْضَى، فلا ندري أَسُحِرْنَا أم ماذا كان؟»- ففي أن لم يُرْوَ عنهم شيءٌ من هذا الجِنْس على وجه من الوجوه، دليلٌ أَنْ لا أصل لما توهموه، وأنَّه تلفيقٌ[(٢)] باطل.

ثُمّ إنه ليس في العادة أن يُذْعِنَ[(٣)] الرجلُ لخَصْمه، ويستكينَ له، ويُلْقي بيده، ويسكتَ على تقريعه له بالعَجْز وترديده القولَ في ذلك، وقَدْرُ ما ظَهر من المَزيَّة قَدَرٌ قد يَطْمَع الإنسانُ في مثله، ويَرَى أنه ينَاله إذا هو اجتهَدَ وتعمَّد- بل العادة في مثل هذا أن يَدْفَعَ العَجزَ عن نفسه، وأن يَجْحَد الذي عرف لصاحبه من المزية ويتشدَّد، كما فَعل حَسَّان، فَيَدَّعي في مساواته، وأنه إن كان جرى إلى غاية رأَى لنفسه بها تقدُّمًا إنه ليجري إلى مثلها، وأن يقول: «لا تَغْلُ ولا تُفَرْط ولا تَشْتَطَّ[(٤)] في دعواك، فلئن كنتَ قَدْ نلْتَ بعضَ السَّبْق، إنَّك لم تُبْعد المَدَى[(٥)] بُعْد من لا يُدَانَى ولا يُشَقُّ، فرويداً[(٦)] ، واكْفُفْ من غُلَوَائك»[(٧)] .

❁❁❁

---

(١) التضجر: التبرم .
(٢) التلفيق: ضم الشيء إلى آخر، ليستخرجوا منه أمراً.
(٣) أذعن: خضع .
(٤) لا تشتط: لا تسرف .
(٥) المدى: الغاية.
(٦) رويداً: تمهل .
(٧) اكفف من غلوائك: قلل من إسرافك وتكبرك .

نقـول لهم: لقـد أردتم أن تداروا عـجزكـم ولجأتم إلى ضـرب من الخـداع والتزويق.

ويدل على بطلان مـا قلتم، لو كان الأمـر كمـا تقولون لملأتم الدنيـا شكوى وتضجـرًا، ولقلتم: إن القرآن وإن كـان فيه فـضل ومزية، إلا أننا لن نعـجز عن معارضــته، ولا ندري إن كُنَّا قد سحرنا أم مـاذا أصابنا، ولكن لم يرد عنكم شيء من ذلك مما يدل على تلفيق هذه الدعوى وهذا الزعم.

وليس من المعتاد أن يذعن الرجل لخصمه، وهو قادر أن يأتي بمثل دعواه؛ بل العادة أن يدفع العجز عن نفسه، وأن يجحد المزية التي يتشدق بها صاحبه.

ويستشهـد عبد القاهر بادعاء حـسان بن ثابت بأنه قادر أن يأتي بكلام يوازي القرآن ويحاذيه، والرد عليه بأنه وإن كان قد نال بعض السبق، إلا أنه لم يصل إلى المدى الذي يعجز عنه غيره، فتمهل أيها المدعي واكفف من غرورك وتيهك.

❁❁❁

٤٧- واعلم أنهم بتمحُّلهم[١] هذا قد وقعوا في أمر يُوهي[٢] قَاعدتهم، ويقدحُ[٣] في أصل مَقالتهم، فقد نظروا لأنفسهم من وَجْه وتركوا النَّظَر لها من آخرَ، وذاك أن من حقِّ المنع إذا جُعل آيةً وبرهانًا، ولاسيّما للنُّبوة، أنْ يكون في أظهر الأُمور وأكثرها وجودًا، وأسْهَلَهَا على النَّاس، وأخْلَقَها[٤] بأن تَبَين لكلِّ راء وسامعٍ أنْ قَدْ كان مَنْعٌ، لا أن يكون المَنعُ مَنْ خَفيٍّ لا يُعْرَف إلا بالنَّظَر، وإلا بَعْدَ الفكْر، ومن شيء لم يُوجَدْ قَطُّ ولم يُعْهَدْ، وإنَّمَا يُظَنُّ ظَنًّا أنَّهُ يجوز أن يكون، وأنَّ لَهُ مَدْخَلاً في الإمكان إذا اجْتَهَد المُجْتَهد، وهل سُمع قَطُّ أن نبيًا أتى قومه فقال: «حُجَّتِي عليكم، والآيةُ أنِّي نبيٌّ إليكم، أَن تُمنعوا من أمرٍ لم يكن منكم قطُّ، وليس يظهر في باديء الرأي[٥] وظاهر الأمر أنكم تستطيعونه، ولكنه موهوم جوازه منكم، إذا أنتم كددتم أنفسكم[٦] ، وجمعتم ما لَكم، واستفرَغْتُم مَجْهُودَكم[٧] ، وعاودتم الاجتهادَ فيه مرة بعد أُخْرَى؟» أم ذلك ما لا يقوله عاقلٌ، ولا يُقْدِم عليه إلا مُجَازِف[٨] لا يدري ما يَقُول؟

وإذَا كان كذلك، وكان الذي قالوه من أنّ المنعَ كانَ من نَظْمٍ لم يُوجَدْ منهم قَطُّ، إلا أنَّهُم أحسُّوا في أنفسهم أنهم يستطيعونَه إذا هُمْ اجتهدُوا واستفرغوا الوُسْعَ، بهذه المنزلة، وداخلاً في هذه القضيَّة- فقد بان أنَّهُم بذلك قد أَوْهَوْا قاعدتهم، وقَدَحُوا في أصلِ المقالة، من حيث جعلوا الآيةَ والبرهانَ وعَلَمَ الرِّسَالة والأمرَ المُعْجز للخَلْق، في المنع من شَيء لم يُوجَدْ قَطُّ، ولم يُعْلَمْ أنَّهُ كان في حال من الأحوال، وليس بأكثر من أنْ ظُنَّ ظنًا أنه مما يحتملهُ الجوازُ ويدخُل في الإمكان، إذا أُدْمنَ[٩] الطلبُ، وكَثُر فيه التعبُ، واستُنْزفَتْ[١٠] قُوَى الاجتهاد، وأُرْسلَت لَهُ الأفكارُ في كُلِّ طريق، وحُشدَتْ إليه الخَواطِر من كُلِّ جِهَة، وكَفَى بِهَذَا ضَعْفَ رَأْي وَقلَّة تحصيلٍ.

✿✿✿

(١) تمحل الشيء: زعمه وادعاه. (٢) يوهي: يضعف. (٣) يقدح: يطعن. (٤) أخلقها: أجددها.
(٥) باديء الرأي: أول الأمر. (٦) كددتم أنفسكم: أجهدتم وأتعبتم أنفسكم.
(٧) استفرغتم مجهودكم: بذلتم أقصى ما تستطيعون من جهد.
(٨) مجازف: مغامر. (٩) أدمن الطلب: تكرر.
(١٠) استنزفت القوى: ضعفت وامحت.

٤٧- وبهذا التمحل وقعوا في أمر أضعف حجتهم، وأوهى قاعدتهم.

وإذا كان المنع هو حجتهم خاصة فيما يتعلق بالنبوة والقرآن أن يكون في الأمور الظاهرة التي يراها ويسمعها كل راءٍ وسامع، ولا يكون المنع فيما خفي من الأمور، ولا يعرف إلا بعد الفكر والتأمل، أو في شيء لم يوجد قط.

وقد يكون الأمر ممكنًا إذا اجتهدوا فيه وتمرسوا في محاولته، لم يسمع من نبي قط أن قال لقومه: حجتي عليكم أن تمنعوا من أمر لم يكن منكم قط، ولكن يتوهم وجوده منكم وإتيانكم به إذا عاودتم الاجتهاد المرة تلو المرة؛ لأن ذلك لا يقوله عاقل، ولا يقدم عليه إلا مجازف.

وإذا قالوا: إن المنع كان من نظم لم يوجد منهم من قبل، غير أنهم شعروا في قرارة أنفسهم أنّ باستطاعتهم أنْ يضاهوه إذا شمّروا عن ساعد الجدِّ واستفرغوا جهدهم فيه.

إذا قالوا ذلك فقد أضعفوا حجتهم من حيث قد جعلوا برهانهم في المنع من شيء لم يوجد ولم يعلم من قبل، ولكن يظن أو يتوهم إمكانهم عليه إذا ضاعفوا من جهدهم وحشدوا كل قواهم وأدمنوا في الطلب، وكفى بهذا تهافتًا وضحالة.

❁❁❁

فصلٌ

(ختام الرسالة الشافية)

٤٨- وهذا فصلٌ أختمُ به:

يَنْبَغي أن يقال لهم: مَا هذا الَّذي أَخَذْتُم به أنفسكم؟ وما هذا التأويلُ[١] منكم في عَجْزِ العرب عن معارضة القرآن؟ وما دَعاكُم إليه؟ وما أردتم منه؟ أأن يكونَ لكم قولٌ يُحْكَى، وتكُونُوا أُمَّةً على حِدَةٍ[٢]، أم قد أتاكم في هذا الباب عِلْمٌ لم يَأْتِ النَّاسَ؟

فإن قالوا: أَتَانَا فيه عِلْمٌ.

قيل: أَفَمِنْ نَظَرٍ ذلك العلمُ أَمْ خَبَرٍ؟[٣]

فإن قالوا: من نَظَرٍ.

قيل لهم: فكأنَّكم تَعْنُون أنكم نَظَرتم في نظم القرآن وَنَظْم كلام العرب، ووازَنْتُم فوجدتموه لا يزيد إلاَّ بالقَدْر الذي لَوْ خُلُّوا[٤] والاجتهادَ وإعمال الفكر، ولم تَفَرَّقْ عنهم خواطرهُم عند القصد إليه، والصَّمْد له- لأتَوْا بمثله؟

فإن قالوا: كذلك نقول.

قيل لهم: فأنتم تَدَّعُون الآن أنَّ نَظَركم في الفصاحة نَظَرٌ لا يغيب عنه شيء من أمرِهَا، وأنَّكُم قد أَحَطْتم عِلْمًا بأسرارِها، وأصبحتُم ولكم فيها فَهْمٌ وعِلْمٌ لم يكن للناس قَبْلَكم.

وإن قالوا: عرفنا ذلك بخَبَر.

قيل: فهاتوا عرِّفُونا ذلك، وأَنَّى لهم تعريف مَا لم يَكُنْ، وتَثْبِيتُ ما لم يُوجَد!

---

(١) التأويل: أن يحتمل الكلام أكثر من وجه.

(٢) أمة على حدة: متحدة غير متفرقة ولا خلاف بينكم.

(٣) من نظر أم خبر: من الرؤية أو من السماع.

(٤) لو خلّوا: لو تركوا.

فصلٌ

خاتمة الكلام

٤٨- عجز العـرب عن معارضة القـرآن لرفعة نظمه وجـمال لفظه، ولكنكم أوّلتم ذلك وقلتم: إنهم صرفـوا عن ذلك رغم قدرتهم عليه وفصـاحتهم، وأردتم بهذا الزعم أن يكون لكم شأن يتحاكى به الناس على مر الأزمان.

فإن كـان قد أتاكم علم عن طريق النظر، فنظرتم إلى نظم القـرآن ونظم كلام العرب ووازنتم بين الاثنين، فلم تجدوا إلا فرقًا ضـئيلاً يمكنكم أن تستوفوه إذا أنتم اجتهدتم وأعملتم فكركم.

إذا قلتم ذلك فقد ادعيتم أنكم أحطتم بأسرار الفصاحة، ولكم فيها علم وفهم لم يكن لأحد قبلكم.

وإن كان قد أتاكم العلم عن طريق الخبر، فعرفونا به، وكيف يمكنهم التعريف بشيء لم يكن ولم يوجد قط؟!

❁❁❁

ولو كان الناس إذا عَنَّ[١] القولُ نَظَروا في مُؤَدَّاه[٢] ، وتبيَّنوا عاقبَتَه، وتَذكَّروا وَصيَّةَ الحكماء حين نَهَوْا عن الوُرُود حَتَّى يُعْرَفَ الصَّدَر[٣] ، وحَذروا أن تَجيَ أعجازُ[٤] الأُمور بغير ما أَوْهَمت الصدور- إذًا لَكَفُوا البلاء[٥] ، ولَعُدِم هذا وأشباهُه من فاسد الآراء، ولكن يأبَى الذي في طبَاع الإنسان من التسرع، ثم من حُسْن الظنِّ بنفسه، والشَّغَف بأن يكون متبوعًا في رأيه، إلا أنْ يخدعَه ويُنْسيَه أنَّه مُوصىً بذلك، ومَدْعوٌّ إليه، ومُحَذَّرٌ من سُوءُ المَغَبَّة[٦] ، إذًا هو تَركه وقصَّر فيه، وهيَ الآفة[٧] لا يسلَم منها ومن جنايتها إلا من عصم الله إليه عزَّ اسمه الرَّغبةُ في أن يُوفَّق للتي هي أَهْدَى، ويَعْصِم من كلِّ ما يُوتِغُ الدِّين[٨] ، ويَثْلِمُ اليقين[٩] ، إنَّهُ وَلِيُّ ذَلكَ والقَادرُ عليه .

❁❁❁

---

(١) عَنَّ لهم القول: ورد على خاطرهم .

(٢) نظروا في مؤداه: قصْده .

(٣) نهوا عن الورود حتى يعرف الصدر: نهوا عن المورد حتى يعرف المصدر .

(٤) أعجاز الأمور: أعقابها .

(٥) كُفوا البلاء: منعوا البلاء.

(٦) سوء المغبة : فداحة العاقبة .

(٧) الآفة: العيب .

(٨) يوتغ الدين: يهلكه ويفسده .

(٩) يثلم اليقين: يحدث فيه فجوة وكسراً .

وإذا برق لهم خاطر فنظروا فيه، وتبيّنوا إلى أين ينتهي، وتذكروا وصية الحكماء بأن أول الكلام يسلم إلى آخره، وعجز القول لا يأتي إلا عن صدره لتجنبوا كثيرًا من المزالق التي يؤدي إليها التسرع في القول، وسوء العاقبة إذا أهملت وصية الحكماء، وساروا حسب هواهم فوقعوا في الهلاك والفساد.

❁❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

(فصل في الصرفة)

٤٩- قولُ من قال: «إنَّهُ يجوزُ أن يَقْدر الواحدُ من النَّاس من بعد انقضاء زمن النبي ﷺ، ومُضيِّ وَقْت التَّحدِّي، عَلَى أَنْ يأتي بما يُشْبه القرآن ويكون مثله؛ لأنَّ ذلك لا يخرُجُ عن أن يكون قد كان معجزًا في زمان النبي ﷺ، وحين تُحُدِّي العربُ إليه»- قولٌ لا يَصِحُّ إلاَّ لمن لا يجعل القرآن معجزًا في نفسه، ويذهب فيه إلى «الصرفة».

فأمَّا الذي عليه العلماء من أنَّهُ مُعْجز في نَفْسه، وأنَّهُ في نَظْمه وتأليفه على وَصْف لا يهتدي الخَلْق إلى الإتيان بكلام هو في نَظْمه وتأليفه على ذَلك الوصف، فلا يصحُّ البتَّةَ ذَاكَ- لا فرقَ بين أنْ يكون الفعْلُ معجزًا في جنسه كإحياء المَوْتَى، وبين أَنْ يكون مُعْجزًا لوقوعه على وَصْف، وإذا كان كذلك، فكما أنَّهُ مُحَالٌ أَنْ يكون هَهُنَا إحياءُ ميِّت لا منْ فعْل الله، كذلك مُحَال أن يكون هَهُنَا نَظْمٌ مثل نَظْم القرآن لا من فعْله تعالى، فهذا هو.

ثُمَّ إنَّهُ إذا نُقِّرَ[1] عنه انكشفَ عن أمر مُنْكر، وهو إخراجُ أنْ يكون وَحْيًا من الله، وأن يكون النبيُّ ﷺ قد تلقَّاه عن جبريل عليه السلام- والذهابُ إلى أن يكون قد كان على سبيل الإلهام، وكالشيء يُلْقَى في نفس الإنْسَان ويُهْدَى له من طريق الخاطر والهاجس[2] الذي يَهْجس في القلب، وذلك مما يُسْتَعَاذُ بالله منه، فإنَّه تَطَرُّقٌ للإلحاد[3]، والله ولي العصْمَة والتوفيق.

❁❁❁

(١) إذا نقر عنه: إذا فتش فيه.

(٢) الهاجس: الصوت الخفي الذي يسمع ولا يفهم.

(٣) الإلحاد: الانحراف عن الدين.

٤٩- ومن أقوال الذين نادوا بالصرفة، أنه يجوز للرجل بعد انقضاء زمن النبي ﷺ، وبعد مضيّ وقت التحدي أن يأتي بما يشبه القرآن، ومعنى ذلك أن القرآن ليس معجزًا في نفسه، بل بأمر خارج عنه.

أما الذين يقولون: إن القرآن معجز في نفسه، وأنه جاء في نظمه ولفظه وتأليفه على وصف لا يهتدي إليه الخلق أبدًا، شأنه في إعجازه شأن إحياء الموتى، فكما لا يمكن إحياء الموتى إلا بفعل الله سبحانه، كذلك لا يمكن أن يكون نظم مثل نظم القرآن إلا من الله سبحانه .

وإذا فتشنا في زعمهم أن القرآن معجز بالصرفة، لوجدنا أن في ذلك إنكارًا بأنه وحي منزّلٌ على النبي ﷺ، وإنما خطر على ذهنه بدافع الإلهام والهاجس الذي يهجس بالقلب، ولاشك أن هذا القول يتطرق إلى الإلحاد، وذلك مما يستعاذ بالله منه .

❁❁❁

بسم الله الرحمن الرحيم

فصلٌ

(في تمييز الكلام بعضه من بعض وما يترتب عليه)

٥٠- اعلم أن البَلاء والداءَ العيَاء[١] أنْ ليس علمُ الفصاحة وتمييزُ بعض الكلام من بعض بالذي تستطيع أَنْ تُفْهمه من شئتَ وَمَتَى شئْتَ، وأنْ لستَ تملكُ من أمرك شيئًا حتى تظفر بمن له طبعٌ إذا قَدَحْته وَرِيَ[٢]، وقلبٌ إذا أَرَيْتَه[٣] رأَى. فأَمَّا وصاحبُك مَنْ لا يرَى ما تُريه، ولا يهتدي للّذي تَهْديه، فأَنْتَ معه كالنَّافخ في الفَحْمِ من غَيْر نَار، وكالملتمس الشَّمَّ منْ أَخْشَمَ[٤]، وكمَا لا تُقيم الشعرَ في نفس من لا ذَوْقَ له، كذلك لا يفهم هذا البابَ من لم يُؤْتَ الآلةَ[٥] التي بها يَفْهم- إلا أنَّه إنَّما يكون البَلاءُ إذَا ظَنَّ العَادمُ لَهَا أَنَّهُ قَدْ أُوتيهَا، وَأَنَّهُ ممَّن يَكْمُل للحكم ويصحُّ منه القضاء. فجَعَلَ يَخْبط ويَخْلط[٦]، ويقول القولَ لو علمَ غِبَّهُ[٧] لاستحيى منه.

وأمَّا الذي يُحسُّ بالنقص في نفسه، ويعلم أنه قد عَدمَ علْمًا قَدْ أُوتيه مَنْ سوَاه، فأَنْتَ منه في راحة. وهو رجلٌ عاقلٌ قد حَمَاهُ عَقْلُه أَنْ يَعْدُو طَوْرَه[٨]، وأَنْ يتكلَّف ما ليس بأهل لَهُ.

وإذَا كَانَتْ العلوم التي لها أُصُولٌ مَعْرُوفة، وقوانينُ مضبوطةٌ، قد اشترك الناس في العلم بها، واتَّفَقُوا على أنَّ البناءَ عليها والرَّدَّ إليها، إذا أَخْطَأَ فيها المُخْطئ، ثُمَّ أُعْجبَ برأيه لم تَسْتَطع رَدَّه عن هَوَاه[٩]، وَصَرْفَه عن الرأي الذي رأَى، إلا بعد الجُهْد، وإلاَّ بعد أن يكون حَصيفًا[١٠] عَاقلاً ثَبْتًا، إذَا نُبِّه انتبَه، وإذا قيل: «إنَّ عليكَ

---

(١) الداء العياء: المرض الوبيل. (٢) ورى: اتقد واشتعل. (٣) أريته: مكنته من الرؤية.
(٤) الأخشم: الذي لا يمكنه شم الرائحة: طيبة أو منتنة. (٥) الآلة: الوسيلة.
(٦) يخبط ويخلط: يفسد الأمور لإقحام بعضها في بعض. (٧) غبه: عاقبته.
(٨) يعدو طوره: يتجاوز حدّه. (٩) رده عن هواه: عن رغبته.
(١٠) حصيفًا: ذكيًا أريبًا.

فصلٌ

٥٠- ومن البلاء أن علم الفصاحة وتمييز الكلام بعضه عن بعض ليس في مقدور الناس جميعًا، وإنما هو خاص بمن له طبع سليم إذا قدحته اتقد وتقبل الكلام.

أما إذا كان الشخص لا يهتدي بما تريد هدايته به، فأنت معه كالنافخ في الرماد من غير فحم ولا نار، وكمن يعرض الشعر لمن لا ذوق له.

فكذلك علم الفصاحة والبلاغة لا يتيسر إلا لمن امتلك آلاته وأسبابه من طبع سليم وذوق رقيق.

والآفة الكبرى والبلاء العميم أن يظن العادم للطبع الفاقد للذوق أنه قد أوتي أسباب البلاغة، وهو منها عارٍ، فتراه يخلط الأُمور ويتخبط في الأقوال، ولو علم عاقبة أمره لاستحيى من كلامه.

وأما الذي يحس النقص في نفسه فأنت منه في راحة؛ لأنه يعرف قدره، ولا يتجاوز حده، ولا يتكلف ما ليس له.

والعلوم لها قوانين مضبوطة قد اتفق الناس عليها، فإذا أخلّ بها المرء روجع وصرف عن قوله، ولا يكون ذلك إلا بعد بذل الجهد معه، وإلا إذا كان عاقلاً إذا نبه إلى شيء انتبه إليه، وابتعد أن يتمسك برأي دون حجة. ومن كانت هذه صفته كان نادرًا وعزيزًا .

❁❁❁

بَقِيَّةً من النَّظَر»، وَقَفَ وأَصْغَى، وَخَشِيَ أَنْ يَكُون قَد غُرَّ[(١)] ، فَاحْتَاطَ باسْتِمَاع مَا يُقَال لَهُ، وَأَنِفَ مِنْ أَنْ يَلجَّ[(٢)] مِنْ غَيْرِ بَيِّنَة، ويستطيل بغير حُجَّة. وكَان مَنْ هَذَا وَصْفُهُ يعزُّ ويقلُّ، فكيفَ بأَنْ تَرُدَّ النَّاسَ عن رأيهم في أمر الفصاحة، وأصْلُك الذي تردُّهم إليه، وتُعَوِّل في مُحاجَّتهم[(٣)] عليه، استشهادُ القرائح، وسَبْرُ النفوس وفَلْيُها[(٤)] ، وما يعرض فيها من الأَرْيَحيَّة[(٥)] عندما تسمع؟ وهم لا يَضَعُون أنفسهم موضعَ من يَرى الرأي ويُفْتِي ويَقْضِي، إلا وعندهم أنَّهم ممن صَفَتْ قَرِيحته[(٦)] ، وصَحَّ ذوقُهُ، وتَمَّت أداته.

فإذا قلت لهم: «إنكم أُتِيتُم من أنفسكم، ومن أنكم لا تَفْطُنُون»، رَدُّوا مثله عليك، وعابُوك، ووقعوا فيك، وقالوا:

«لا، بل قرائحنا أصحُّ، ونظرُنا أصدقُ، وحسُّنا أَذْكَى، وإنَّمَا الآفةُ[(٧)] فيكم، فإنكم جئتم فَخَيَّلْتُم إلى أنفسكم أُموراً لا حاصلَ لها، وأَوْهَمَكم الهَوَى والميلُ أنْ تُوجبوا لأحد النَّظْمين المتساويين فضلاً عن الآخر، من غير أن يكون له ذلك الفضلُ»، فَتَبْقَى في أيديهم حَسيراً[(٨)] لا تَمْلكُ غير التعجب.

فليس الكلامُ إذَنْ بمُغْنٍ عنك، ولا القولُ بنَافعٍ، ولا الحُجَّةُ مسموعةٌ، حتى تجدَ مَنْ فيه عونٌ لك، وَمَنْ إذا أَبَي عليك أَبَى ذَاكَ طَبْعُه فرده إليك، وفتح سَمْعه لَكَ، وَرَفَع الحجاب بَيْنَه وبينَك، وأَخَذَ به إلى حَيْثُ أَنْت، وَصَرَفَ ناظرَه إلى الجهة التي إليها أومأت[(٩)] ، فاستبدلَ بالنِّفَار[(١٠)] أُنْسًا، وأراك من بعد الإِبَاء[(١١)] قَبُولاً، وبالله التوفيق.

❁❁❁

---

(١) يخشى أن يكون قد غرّ: خدع .
(٢) أنف أن يلج: ابتعد أن يتمسك .
(٣) تعول في محاجتهم: تعتمد عليه في جدالهم .
(٤) سبر النفوس وفليها: النفاذ إلى أغوار النفس وتفتيشها .
(٥) الأريحية: الارتياح والنشاط .
(٦) صفت قريحته: صفا ذهنه .
(٧) الآفة فيكم: العيب بداخلكم .
(٨) حسيراً: حزيناً كئيباً مجهداً .
(٩) أومأت: أشرت .
(١٠) النفار: الجفاء.
(١١) الإباء: الامتناع .

فكيف إذا كان الأمر متعلقًا بالفصاحة، التي يعول فيها على حدّة القريحة، وذكاء القلب، وصفاء النفس، وصحة الذوق.

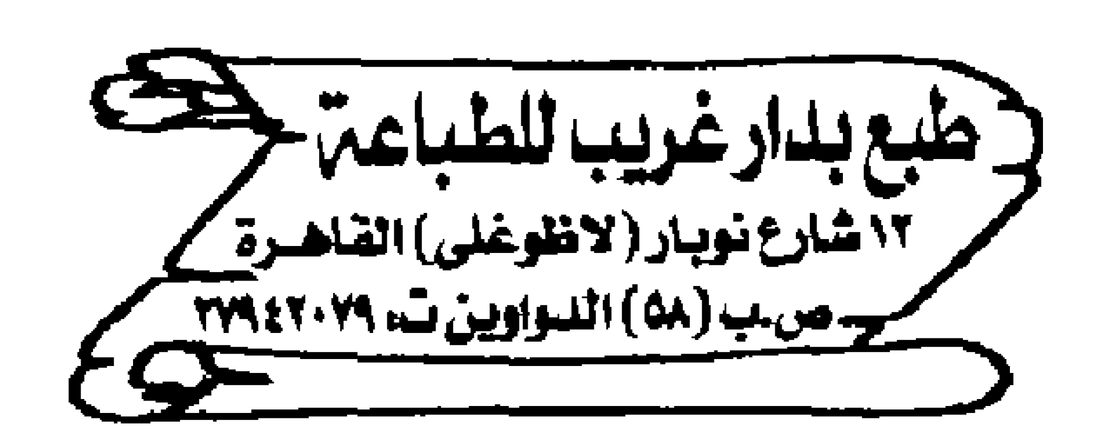
وإذا راجعتم في ذلك تبجحوا معكم، فهم أصح قريحة وأصدق نظرًا وأذكى حسًا، والآفة فيك وليست فيهم، فلا تملك إلا أن تقف حزينًا متحسرًا على أقوالهم وادعاءاتهم.

وكلامك معهم لا يغني من الأمر شيئًا ولن يعيدهم إلى الصواب، فلا قولك معهم بنافع، ولا حجتك فيهم مقبولة، لأن طباعهم خشنة وأذواقهم بليدة.

أما من يفتح سمعه ويعي كلامك، ويرفع الحجاب الذي أسدل بينك وبينه، فإنه يرجع عن جموحه، ويصبح جفاؤه أنسًا وإباؤه قبولا. والله الموفق.

***

فهرس الموضوعات



طبع بدار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت ٢٧٩٤٢٠٧٩



هذا الكتاب

وكتاب الرسالة الشافية فى الاعجاز لامام البلاغيين الشيخ عبد القاهر الجرجانى (ت٤٧١هـ) كتاب جم الخطر ،كثير النفع لما فيه من تحليل شافٍ ومناقشة رائعة وعمق شديد وقد اعترى الكتاب شيء من الغموض فى بعض عباراته بحيث لا يكتشف المعنى فى وضوح تام فرأيت أن أوضح ألفاظه وأفسر معانيه فكان شرح اللفظ فى هامش الصفحة اليمنى التى وضع فيها نص كتاب الرسالة الشافية وتفسير المعنى فى الصفحة اليسرى المقابلة للنص.كما أردت أن أمهد لآراء عبد القاهر فى الاعجاز بذكر أقوال العلماء السابقين واللاحقين حتى ينكشف الخبيء وتعم الفائدة.

الدكتور / عبد القادر حسين

- حصل على الدكتوراه ١٩٧٠ م بمرتبة الشرف الأولى. وعنوانها أثر النحاة فى البحث البلاغى.

-وهو أستاذ ورئيس قسم البلاغة بجامعة الأزهر وله ثلاثون كتاباً فى البلاغة والحديث والتفسير ما بين مؤلف ومحقق كفن البلاغة وفن البديع والقرآن والصورة البيانية ومن الكتب المحققة : الاكسير فى علم التفسير للطوفي والإشارات والتنبيهات فى علم البلاغة للجرجانى والايضاح للخطيب القزويني وخلاصة المعانى للمفتي وأصول البلاغة لميثم البحرانى وغيرها من المؤلفات الشهيرة.

- وناقش الكثير من رسائل الماجستير والدكتوراه وحضر العديد من المؤتمرات الأدبية والبلاغية في مصر وخارجها